خطاب الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام- لغير العاقل في القرآن الكريم "دراسة بلاغية"

د. البدري فؤاد عبد الغني(*)

المقدمة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧)

وبعـــــد ،،،

فإن القرآن الكريم كلام رب العالمين ، أنزله علي سيد المرسلين (صلي الله عليه وسلم) بلسان عربي مبين ، معجزة يتحدي بها أرباب الفصاحة وفرسان البيان ، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام بلاغته وفصاحته ، وما ذلك إلا لأنه ملئ بالأسرار البلاغية والنفحات الربانية ، فتجد النفس عندما تتذوق ثماره وتشم ريحانه تتعلق به تعلق الطفل بأمه - بل أشد – وبخاصة عندما تتناول فكرة معينة فتريد أن تستوفيها وتجمع كل ما يتعلق بها ، فقد كنت تقدمت ببحثٍ قبل ذلك بعنوان " خطاب الله ــ سبحانه وتعالي ــ لغير العاقل في القرآن الكريم دراسة بلاغية " .

ومن خلال جمعي لآيات هذا البحث وجدت خطاباً آخر لغير العاقل وهو " خطاب الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ "

فعقدت النية – إن أطال الله في عمري- لاستكمل هذه الفكرة وأدرسها دراسة بلاغية أيضاً لنتعرف هل هناك فرقٌ بين خطاب الله لغير العاقل وخطاب الأنبياء لغير العاقل وقد حان الوقت لظهور هذه الفكرة الثانية فجاءت تحت عنوان " خطاب الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام – لغير العاقل في القرآن الكريم دراسة بلاغية " وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج الآتي:-

أولاً:- حصرت الآيات التي اشتملت علي خطاب الأنبياء لغير العاقل .

(*) مدرس البلاغة والنقد – كلية اللغة العربية بجرجا – جامعة الأزهر.

ثانياً: صنفتها علي حسب ترتيب ورودها في القرآن الكريم .

ثالثا: ذكرت مناسبة الآية لما قبلها مع ذكر المعني العام لها إن لم يكن في ذكر المناسبة بيان له.

رابعاً: حللت الآيات تحليلاً بلاغياً معتمدا علي الوقوف عند كل لفظة ومناسبة هذه اللفظة لجارتها وما توحي به من أسرار بلاغية وما تشتمل عليه من بلاغة التراكيب والتصوير البياني والمحسنات البديعية

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة وفهرس للمصادر والمراجع :

فأما المقدمة : فبينت فيها أهمية الموضوع وفائدته وسر اختياري له.

وأما المبحث الأول فعنوانه : خطاب سيدنا إبراهيم للطير .

وأما المبحث الثاني فعنوانه : خطاب سيدنا سليمان للهدهد.

وأما المبحث الثالث فعنوانه : خطاب سيدنا إبراهيم للأصنام .

وأما الخاتمة : ففيها أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة.

وبعد فإن أكن قد وفقت فهذا من فضل الله وكرمه وفضل القرآن الكريم علينا ، وإن كانت الأخرى فمني ومن الشيطان والله ورسوله منه براء ونسأله العفو والتسامح إنه سميع قريب مجيب الدعوات .

المبحث الأول

خطاب سيدنا إبراهيم للطير

من الجدير بالذكر : أن خطاب سيدنا إبراهيم للطير كان خطاباً مقدراً، والمقدر فى حكم الموجود ، ولذلك نجد بعض العلماء صرح بذلك فقال : " حكى الله – سبحانه وتعالى – أوامره ، وحذف تتمة القصة ولم يتعرض لأمثال إبراهيم – عليه السلام – لها لأن ذلك مدرك بالبداهة " [1] . فمن هذا المنطلق تناولنا هذا الموضع ، لأن عنوان البحث خطاب الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – لغير العاقل في القرآن الكريم دراسة بلاغية سواء كان الخطاب حقيقياً أم تقديرياً فالبحث يشمل الخطابين .

ورد هذا الخطاب فى قول الله - تعالى – فى سورة البقرة : { وإذْ قالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّ أرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى قالَ أوَلَمْ تُؤْمِن قالَ بَلَى ولَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلبِي قالَ فَخُذْ أرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأتِينَكَ سَعْياً واعْلَمْ أنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } الآية ٢٦٠ .

مناسبة الآية لما قبلها :

مناسبة هذه الآية لما قبلها فى غاية الظهور إذ كلاهما أتى بها دلالة على البعث المنسوب إلى الله تعالى فى قول إبراهيم للنمرود { رَبِّيَ الذِي يُحْيِي ويُمِيتُ }[2] ، لكن المار على القرية أراه الله ذلك فى نفسه وفى حماره وإبراهيم أراه ذلك فى غيره .

وقدمت آية المار على آية إبراهيم ، وإن كان إبراهيم مقدماً فى الزمان على المار ؛ لأنه تعجب من الإحياء بعد الموت ، وإن كان تعجب اعتبار فأشبه الإنكار وإن لم يكن إنكاراً فكان أقرب إلى قصة النمرود وإبراهيم[3] .

---

١ - الجدول فى إعراب القرآن ٣ / ٤٢ .
٢ - من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .
٣ - ينظر : البحر المحيط لأبى حيان ٢ / ٦٤٣ .

من الأسرار البلاغية فى الآية :

بدأت هذه الآية بقوله (وإذ) وإنما غاير الأسلوب فى هذه الآية ولم يقل أو كالذى وإنما قال رب أرنى ... لأنه قد تقدم له ذكر ، وأيضا الأمر المعجز لم يقع له فى نفسه كالعزيز وإنما أراه الله ذلك فى غيره [٤] .

والواو فى قوله (وإذ) عاطفة على نحو : اذكروا ما تلى عليكم من أمر البعث واذكروا قصة أبيكم إبراهيم فيما يدل عليه إذ [٥] .

وقيل : إن الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لإيراد دليل آخر على رعاية الله للمؤمنين [٦] . والعامل فى (إذ) محذوف ، وبناء على ذلك يكون فى التعبير إيجاز بالحذف والتقدير : اذكر إذ قال إبراهيم .

وإيجاز بالحذف هنا قد دل عليه دليل ، وهذا ما أشار إليه الخطيب القزوينى بقوله : " أن يدل العقل على الحذف والمقصود الأظهر على تعيين المحذوف " [٧] .

وسر التعبير بـــ (إذ) أن سيدنا إبراهيم - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة السلام - تغير موقفه عن سابقيه فى الآيتين اللتين سبقت هذه الآية، حيث إن الأول أراد أن يخفى ما أوضحته البراهين من أمر الإله فى الإحياء بأنه ادعى لنفسه المشاركة بإحياء مجازى ، تلبيساً بلفظ إلى الدال على بعده، ولعنه وطرده ، والثانى استبعد إحياء القرية فأراه الله - سبحانه وتعالى -كيفية الإحياء الحقيقى ، آية له وتتميماً للرد على ذلك مع الإقبال عليه بالمخاطبة ولذة الملاطفة ، أما سيدنا إبراهيم " سأل إكرام الله تعالى له بأن يريه ، كيف يحيى ، فيثبت ، ثم أثبتت ، ثم أكدت ... ولذلك عبر فى قصته بقوله (وإذ) ولم يسقها مساق التعجب كالأول " [٨] .

---

٤ - ينظر : حاشية الصاوى ١ / ١١١ .
٥ - ينظر : نظم الدرر ١ / ٥٠٨ .
٦ - ينظر : إعراب القرآن وبيانه ١ / ٤٠١ .
٧ - الإيضاح ٣ / ١٩٤ – تحقيق / خفاجى – الطبعة الثالثة – المطبعة الأزهرية للتراث ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م .
٨ - نظم الدرر ١ / ٥٠٨ .

ثم جاء التعبير بالفعل الماضى (قال) وبذلك يكون قد عبر عن المسند بالفعل الماضى ، ليدل على أن هذا القول قد حدث فى الزمان الماضى، لأن أحد الأزمنة الثلاثة جزء مفهوم الفعل ، فهو يدل على الزمن المراد بصيغته[٩] .

ثم جاء المسند إليه معرفاً بالعلمية (إبراهيم) والسر البلاغى فى ذلك تعظيم المسند إليه ، لأنه يؤتى بالمسند إليه معرفاً بالعلمية من أجل تعظيمه ومن أجل أن يناسب المقام ، لأن هناك من المقامات ما يقتضى إحضار المسند إليه فى ذهن السامع ابتداء باسم مختص به ولا يكون ذلك إلا بالعلم لأنه يحضر مسماه فى ذهن السامع ابتداء بخلاف ضمير الغائب مثلاً ، فإنه وإن أحضر شخصه فى ذهن السامع لكنه إحضار يتأتى ثانياً بعد إحضاره بالمرجع أولاً ، كما أن ذكره بالعلمية نص فى مسماه ، فلا يقع فيه التباس ؛ لأنه موضوع للذات المشخصة المعنية ، بخلاف الضمير فليس نصاً فى معناه من حيث ذاته ، بل هو موضوع لكل غائب ، فالذى يتحقق به إحضار المسند إليه بشخصه بمجرد النطق باللفظ هو العلم ، وهذا الغرض وإن كان من استعمال العلم فى معناه الأصلى ، فهو أيضا من وجوه البلاغة إذا اقتضاه المقام .

وهذا ما أشار إليه علماء البلاغة بقولهم : " وإن كان بالعلمية – أى تعريف المسند إليه بإيراده علماً – فإما لإحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم مختص به ... وإما لتعظيمه "[١٠] .

ولذلك نجد علماء التفسير يوردون سؤالاً ويقولون : ما الحكمة فى أنه تعالى لم يسم عزيزاً ، بل قال : أو كالذى مر على قرية ، وههنا سمى إبراهيم مع أن المقصود من كلتا القصتين شىء واحد ، وهو الدلالة على صحة البعث فأجابوا على هذا السؤال بقولهم :

السبب فى ذلك ، إن عزيزاً لم يحفظ الأدب ، بل قال : " أنى يحيى هذه الله بعد موتها " ، فلم يسمه باسمه تخفيفاً له من هذا الوجه ، وأيضا جعل الإحياء والإماتة فى نفسه وفى جاره وإبراهيم – عليه السلام – حفظ الأدب

٩ – ينظر : المطول ص ١٥ .
١٠ – الإيضاح ٢ / ١٢ .

ورعاه ، حيث أثنى على الله تعالى أولاً بقوله (رب) ثم دعا حيث قال: أرنى ، فسماه الله تعالى باسمه تعظيماً لشأنه ، ولذلك جعل الإحياء والإماتة فى الطيور (١١) .

ولعل ذلك يعضد ما ذكرناه من السر البلاغى فى الإتيان بالمسند إليه معرفاً بالعلمية .

وقد بدأت هذه الآية بالأسلوب الخبرى (وإذ قال إبراهيم) الذى خرج من معناه الحقيقى إلى معنى آخر مجازى وهو الاستعطاف والرغبة والاشتياق والتطلع من سيدنا إبراهيم لكيفية إحياء الله للموتى .

فيعرض سيدنا إبراهيم سؤاله ويتشوق إلى معرفة سر الصنعة الإلهية ، وحين يجىء هذا التشوق من إبراهيم الأواه الحليم ، المؤمن الراضى الخاشع العابد القريب الخليل ، حين يجىء هذا التشوق فإنه يكشف عما يختلج أحياناً من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية فى أقرب المقربين .

إنـــه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره ، وليس طلباً للبرهان أو تقوية للإيمان ، إنما هو أمر آخر ، له مذاق آخر ، إنه أمر الـــشوف الروحـــى إلى ملابسة السر الإلهى فى أثناء وقوعه العملى ومذاق هـــذه التجربة فى الكيان البشرى مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب، ولو كان هو إيمان إبراهيم الخليل الذى يقول لربه ، ويقول له ربه ، وليس وراء هـــذا إيمـــان ولا برهان للإيمان ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهى تعمل ، ليحـــصل علـــى مذاق هذه الملابسة فيستروح بها ويتنفس فى جوها ويعيش معها وهى أمر آخر غير الإيمان الذى ليس بعده إيمان (١٢) .

وتأمل كيف بدأ سيدنا إبراهيم هذا الحوار مع ربه ، بدأه بقوله (رب) وفى التعبير بلفظ (رب) تصريح بكمال أدبه مع خالقه - عز وجل - فهو قبل أن يدعوه يستعطفه ويعترف له بالربوبية الحقة والألوهية التامة ويرجو منه معرفة كيفية إحياء الموتى ، فهو لا يشك فى قدرة الله ولا فى صحة البعث - وحاشاه أن يفعل ذلك - فهو رسول من

---

١١ - ينظر : حاشية الشيخ زادة ١ / ٥٧٥ ، والتفسير الكبير ٧ / ٣٣ .
١٢ - ينظر : فى ظلال القرآن ٣ / ٣٠١ ، ٣٠٢ . .

أولى العزم من الرسل ، وإنما يريد أن ينتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين ، ومن مرتبة البرهان إلى مرتبة العيان ، فإن العيان يغرس فى القلب أسمى وأقوى ألوان المعرفة والاطمئنان [١٣] .

أضف إلى ذلك أن أكثر نداءات القرآن الكريم جاءت بلفظ (رب) ولذلك نجد أبا حيان يقول : " وكثيراً ما جاء النداء بلفظ) (ربنا) و (رب) وفيه استعطاف العبد لمولاه الذى رباه وقام بمصالحة من لدن نشأته إلى وقت ندائه ، فهو جدير بأن لا يناديه إلا بلفظ الرب " [١٤] .

فيا ترى لم صار لفظ الرب مختصاً بوقت الدعاء ؟ يجيب على هذا السؤال بعض العلماء فيقول : " كأن العبد يقول : كنت فى كتم العدم المحض والنفى الصرف فأخرجتنى إلى الوجود ، وربيتنى فاجعل تربيتك لى شفيعاً إليك فى أن لا تخلينى طرفة عين عن تربيتك وإحسانك وفضلك " [١٥] .

ومما يلاحظ أيضا فى هذا النظم القرآنى (رب) حذف حرف النداء (يا) وهذا كثير فى القرآن الكريم حتى : " لا يكاد [١٦] يستخدم حرف النداء مع الرب ، بل ينادى مجرداً من حرف النداء ولعل فى ذلك تعبيراً عن شعور الداعى بقربه من ربه " [١٧] وهذا أدعى لاستجابة الدعاء.

وهذا النداء (رب) خرج من معناه الحقيقى إلى معنى بلاغى هو الاستعطاف وهذا النداء قد حذفت أداته وهى (يا) لأن " أصل حروف النداء (يا) ولهذا كانت أكثر أحرفه استعمالاً ، ولا يقدر عند الحذف سواها ، ولا

---

١٣ - ينظر : التفسير الوسيط ١ / ٦٠١ .
١٤ - البحر المحيط : ٧ / ٤٥١ .
١٥ - التفسير الكبير ٢٧ / ٣٣ .
١٦ - لا يكاد لأنه ورد حرف النداء مع اسم الرب فى موضعين من القرآن الموضع الأول فى سورة الفرقان آية ٣٠ ، وقال الرسول يا رب ، الموضع الثانى فى سورة الزخرف آية ٨٨ (وقيله يا رب) .
١٧ - من بلاغة القرآن - تأليف أحمد بدوى ١٦٨ .

ينادى اسم الله - عز وجل - واسم المستغاث وأيها ، وأيتها إلا بها ولا المندوب إلا بها أو بـــ (وا) "[١٨].

ثم يأتى التعبير بفعل الأمر (أرنى) أى : بصرنى[١٩]: وأصله : أرئينى ، بوزن أكرمنى ، حذفت الياء لأن الأمر كالمضارع فصار ارئنى ، ثم نقلت حركة الهمزة إلى الراء وحذفت الهمزة والرؤية هنا بصرية تتعدى إلى مفعول واحد فلما دخلت همزة النقل تعدت إلى مفعول ثان وهو جملة الاستفهام[٢٠].

ويجوز كونها علمية وجملة (كيف تحيى الموتى) فى تأويل مصدر هو المفعول الثانى[٢١].

وتأمل التعبير بفعل الأمر (أرنى) حيث (طلب ما هو أهله كما قال تعالى { وكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ }[٢٢]فمن ملكوت الأرض الإحياء "[٢٣].

وصيغة الأمر (أرنى) خرجت عن معناها الحقيقى إلى معنى بلاغى هو الدعاء والرغبة ، فسيدنا إبراهيم يرغب ويتشوق ويدعو ربه أن يريه رأى العيان كيفية إحياء الموتى .

فصيغة الأمر (أرنى) ليست مستعملة فى معناها الحقيقى ، لأن المخاطب هو الله - سبحانه وتعالى - وليس لأحد من عباده أن يلزمه بشىء ، وإنما هى دعاء ورغبه إلى الله ، ليريه كيفية إحياء الموتى ، وجاء

---

١٨ - الأشباه والنظائر فى النحو للسيوطى ٢ / ١٣٠ – الطبعة الثانية – دائرة المعارف العثمانية سنة ١٣٦٠ هـ .

١٩ - ينظر : الكشاف ١ / ٣٩٢ .

٢٠ - ينظر : حاشية الصاوى ١ / ١١١ .

٢١ - ينظـــر : حاشية الشهاب ٢ / ٣٤ – دار إحياء التراث العربى ، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك - لابن هشام الأنصارى ٢ / ٧٥ – تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦م

٢٢ - من الآية ٧٥ من سورة الأنعام .

٢٣ - ينظر : الدرر ١ / ٥٠٩ .

أسلوب الأمر فى مقام الدعاء ، ليبين مدى إظهار الخشوع والخضوع والتذلل من العبد إلى ربه .

وقوله (كيف تحيى الموتى) استفهام ، ليس عن شك - والعياذ بالله - فى قدرة الله عن الإحياء ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ، ولا يشترط فى الإيمان الإحاطة بصورتها فإنما هى طلب علم مالا يتوقف الإيمان على علمه

فالاستفهام هنا حقيقى عن حالة شىء متقرر الوجود عند إبراهيم – عليه السلام – فالسؤال عن هيئة إحياء الموتى ، أما إحياء الموتى نفسه فهو متقرر وثابت فى اعتقاد إبراهيم – عليه السلام - [٢٤].

فإن قيل : ما سبب سؤال سيدنا إبراهيم ، فالإجابة من وجوه كثيرة ذكرها علماء التفسير [٢٥]، نذكر بعضاً منها ونترك الباقى تحاشياً للإطالة .

الأول منها : أنه رأى جيفة مطروحة فى شط البحر ، فإذا مد البحر أكل منها دواب البحر ، وإذا جزر البحر جاءت السباع فأكلت ، وإذا ذهبت السباع جاءت الطيور فأكلت وطارت فقال إبراهيم : رب أرنى كيف تجمع أجزاء الحيوان من بطون السباع والطيور ودواب البحر .

الثانى منها : قيل أن سبب السؤال مناظرته مع النمرود ، لما قال (رب الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت) فأطلق محبوساً وقتل رجلاً ، قال إبراهيم ليس هذا بإحياء وإماتة وعند ذلك قال (رب أرنى كيف تحى الموتى) .

الثالث منها : أنه ﷺإنما سأل ذلك لقومه ، وذلك أن أتباع الأنبياء كانوا يطالبونهم بأشياءِ تارة تكون باطلة ، وذلك كقولهم لموسى - عليه السلام - (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) [٢٦] فسأل سيدنا إبراهيم ذلك ليزول الإنكار عن قلوبهم .

---

٢٤ - ينظر : القرطبى ٢ / ١٠٧ .

٢٥ - ينظر : المحرر الوجيز لابن عطية ١ / ٣٥٢ ، والتفسير الكبير للرازى ٧ / ٣٤ ، ٣٥ وحاشية الصاوى ١ / ١١١ ، والبحر المحيط ٢ / ٦٤٣ ، وروح المعانى ٣ / ٢٦ .

٢٦ - من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف .

الرابع منها : لعله طالع فى الصحف التى أنزلها الله تعالى عليه أنه يشرف ولده عيسى بأنه يحيى الموتى بدعائه ، فطلب ذلك فقيل له ، أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) على أنى لست أقل منزلة فى حضرتك من ولدى عيسى .

وتأمل ألفاظ جملة الاستفهام ، حيث استخدم سيدنا إبراهيم من بين أدوات الاستفهام (كيف) والاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حال شىء متقرر الوجود عند السائل والمسئول فالاستفهام هاهنا عن هيئة الإحياء المتقرر عند السائل أى بصرنى كيفية إحيائك للموتى وإنما سأله - عليه السلام - ليتأيد إيقانه ، ويزداد قلبه اطمئناناً على اطمئنان.

ولذلك جاء فى الإيضاح للخطيب القزوينى " وأما كيف فللسؤال عن الحال ، إذا قيل : كيف زيد ؟ فجوابه صحيح ، أو سقيم أو مشغول أو فارغ أو نحو ذلك " (٢٧) .

ثم أعقب أداة الاستفهام الفعل المضارع (تحيى) والتعبير بالمضارع يكون لاستحضار حالة الإحياء ، فمجىء الإحياء على صورة المضارع تلك الصيغة الكاشفة التى تصف الحدث - وهو يقع - أتم وصف ، وتبينه أبلغ بيان ، فضلاً عن أن هذه الصيغة تفيد أن هذا الإحياء متجدد ومتكرر ، سيشاهده سيدنا إبراهيم فى الدنيا ، ليطمئن قلبه ، ويشاهده الخلائق أجمع يوم القيامة من خلال الحشر .

وهذا ما عبر عنه علماء البلاغة بقولهم : " وأما كونه فعلاً – أى المسند – فللتقييد بأحد الأزمنة الثلاثة على أخصر ما يمكن مع إفادة التجدد " (٢٨) .

وتأمل لفظ (الموتى) حيث أتى به جمعاً ، ولم يأتى به منفرداً ، فسر مجيئه جمعاً دليل على إيقان سيدنا إبراهيم بأن الله هو الذى يحيى جميع الخلائق من لدن سيدنا آدم إلى قيام الساعة ، أضف إلى ذلك إلى أن أتيانه جمعاً فيه بيان على قدرة الله الذى يقول للشىء كن فيكون ، فهو الذى يحيى

---

٢٧ - الإيضاح ٣ / ٦٦ ، وينظر أيضاً : مفتاح العلوم للسكاكى ص ١٧٤ – مطبعة الحلبى ١٤١١ هـ / ١٩٩٠م ، وشروح التلخيص ٢ / ٢٨٣ .

٢٨ - الإيضاح ٢ / ١٣ .

جميع خلقه بعد أن صاروا تراباً ، وصارت العظام رميماً { قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَـــرَّةٍ وهُـوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ }[٢٩] .

كما أن جملة الاستفهام (كيف تحيى الموتى) تشتمل على إيجاز بالحذف ، حيث حذف المسند إليه وهو الفاعل ، وتقدير الكلام : كيف تحيى أنت الموتى ، ولعل السر البلاغى وراء هذا الحذف يكمن فى أن الناس جميعاً تعلم بأن الذى يحيى الموتى هو الله - سبحانه وتعالى - ولا يختلف أحد على ذلك - إلا من رحم ربى - ولذلك حذف المسند إليه ، لأن حذفه لا يؤدى إلى التباس ، ولذلك من عوامل حذف المسند إليه – كما ذكر علماء البلاغة – لأن الخبر لا يصلح إلا له حقيقة [٣٠] . ولأنه قد تقدم له ذكر عندما قال سيدنا إبراهيم (رب أرنى كيف تحى الموتى) .

كما أن هذا الحذف يدلل على أن سيدنا إبراهيم ، يستحى من كثرة الكلام فى هذا الموضوع فهو متأكد بأن الله يعلم ما فى قلبه قبل أن ينطق به.

ومن ينعم النظر فيما سبق من تعبير (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى) يجد فيه لوناً بلاغياً آخر يسمى فى علم البلاغة باب الإشارة .

وقد عرفه ابن أبى الإصبع بقوله : " هو أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على المعنى الكثير بإيماءٍ أو لمحة تدل عليه " [٣١] .

وقد دلنا على هذا اللون البلاغى العلامة الآلوسى عندما قال " من باب الإشارة فى هذه القصة (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى) أى موتى القلوب بداء الجهل (قال أو لم تؤمن) أى ألم تعلم ذلك علماً يقيناً؟ (قال بلى) أعلم ذلك ، قال : (فخذ أربعة من الطير) إشارة

---

٢٩ - الآيتان ٧٨ ، ٧٩ من سورة يس .

٣٠ - الإيضاح ٢ / ٥ .

٣١ - ينظـــر : تحرير التحبير ص ٢٠٠ – تحقيق / حفنى محمد شرف ١٤١٦ هـــ / ١٩٩٥م . ، وبديع القرآن ص ٨٢ – تحقيق / حفنى محمد شرف

إلى طيور الباطن التى فى قفص الجسم ، وهى أربعة من أطيار الغيب : العقل والقلب والنفس والروح "[٣٢] .

وبعد أن استعطف سيدنا إبراهيم ربه وطلب منه أن يريه كيفية إحياء الموتى جاء الرد الإلهى بقوله { قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن } أى أتقول ذلك وتطالبه ولم تؤمن بأنى قادر على الإحياء على كل شىء .

وفصلت جملة (أولم تؤمن) لأنها جاءت بمثابة جواب عن سؤال اقتضته الجملة السابقة وهى (قال إبراهيم رب كيف تحيى الموتى) ، وكأن سائلا سئل وقال : عندما طلب سيدنا إبراهيم من ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى، فماذا رد عليه المولى سبحانه وتعالى ، فجاء الجواب (أولم تؤمن) ، وقد دلنا على هذا اللون البلاغى العلامة الآلوسى عندما قال : " قوله (أولم تؤمن) استئناف مبنى على السؤال والضمير للرب "[٣٣] .

فإن قلت : كيف قال له (أولم تؤمن) ، وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً، قلت : ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلية للسامعين[٣٤] .

كما أن الله - سبحانه وتعالى – " يعلم إيمان عبده وخليله ولكنه سؤال الكشف والبيان والتعريف بهذا الشوق وإعلانه والتلطف من السيد الكريم الودود الرحيم مع عبده الأواه الحليم المنيب "[٣٥] .

وفى التعبير السابق إيجاز بالحذف ، حيث حذف المسند إليه وهو لفظ الجلالة ، لأن الضمير فى (قال) عائد على لفظ الجلالة (الله) وفى هذا التعبير حذف آخر ، حيث حذف فاعل الفعل المضارع (تؤمن) أو لم تؤمن أنت .

والاستفهام فى قوله (أو لم تؤمن) تقريرى لحمل سيدنا إبراهيم – عليه السلام – على الإقرار بما ثبت لديه ، واستقر عنده من الإيمان واليقين، والمراد بالتقرير هنا : التقرير بما بعد النفى لا التقرير بالنفى أى : آمنت . والواو (واو) الحال ، وعامل الحال فعل مقدر دل عليه قوله

---

٣٢ - روح المعانى ٣ / ٣١ .
٣٣ - روح المعانى للآلوسى ٣ / ٢٦ .
٣٤ - ينظر : الكشاف ١ / ٣٩٢ .
٣٥ - فى ظلال القرآن ٣ / ٣٠٢ .

(أرنى) والتقدير : أأريك فى حال أنك لم تؤمن وهو تقرير مجازى ، مراد به لفت عقله إلى دفع هواجس الشك [٣٦].

وشاهدنا من الضرب الثانى من أضرب الاستفهام التقرير لأن علماء البلاغة قسموا الاستفهام التقريرى ضربين :

الضرب الأول : بمعنى التحقيق والتثبيت ، ومنه قوله تعالى : { ألم نشرح لك صدرك) أى شرحناه لك بلا ريب ، وهذا إنشاء لفظاً خبر معنى .

الضرب الثانى : طلب الإقرار ، كقوله : (أولم تؤمن) وهذا إنشاء لفظاً ومعنى) .

كذلك فرقوا بين الضربين : بأن الأول لا يستدعى جواباً والضرب الثانى يستدعى جواباً ، وهو الذى تحدث عنه الإمام عبد القاهر فى كتابه دلائل الإعجاز وقال : " واعلم أن هذا الذى ذكرت لك فى الهمزة وهى للاستفهام قائم فيها إذا هى كانت للتقرير " [٣٧].

ثم حكى القرآن الكريم جواب سيدنا إبراهيم فى الرد على سؤال ربه له { قَالَ بَلَى ولكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } أى قال سيدنا إبراهيم فى الرد على سؤال ربه له (أولم تؤمن) بلى يا رب أمنت بك وبقدرتك وبوحدانيتك إيماناً صادقاً كاملاً ، ولكنى سألت هذا السؤال ، ليزداد قلبى سكوناً واطمئناناً وإيماناً ، لأن من شأن المشاهدة أن تغرس فى القلب سكوناً واطمئناناً أشد وإيماناً أقوي وأنا في جميع أحوالي مؤمن كل الايمان بقدرتك ووحدانيتك يارب العالمين [٣٨].

وفصلت جملة (قال بلى) عن الجملة السابقة (قال أولم تؤمن) لأن الجملة الثانية جاءت بمثابة جواب عن سؤال اقتضته الجملة الأولى ، وكأن سائلا سأل وقال : ماذا كان رد إبراهيم على ربه عندما قال له (أولم تؤمن) ، فجاء الجواب : (قال بلى) .

---

٣٦ - ينظر : التحرير والتنوير ٣ / ٣٨ .

٣٧ - ينظر : دلائل الإعجاز ص ١١٣ – تحقيق / محمود محمد شاكر – مطبعة المدنى .

٣٨ - ينظر : التفسير الوسيط ١ / ٦٠١ .

وقد ذكر الإمام عبد القاهر أن الفصل فى مثل هذه المواضع يكثر ولاسيما فى القرآن الكريم حيث قال : " واعلم أن الذى تراه فى التنزيل من لفظ قال ، مفصولاً غير معطوف هذا هو التقدير فيه – والله أعلم – أعنى مثل قوله تعالى : { هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف } [٣٩] . جاء على ما يقع فى أنفس المخلوقين من السؤال ، فلما كان فى العرف والعادة فيما بين المخلوقين لذا قيل لهم : دخل قوم على فلان فقالوا كذا ، أى يقولوا فما قال هو ؟ ويقول المجيب : قال كذا ، أخرج الكلام ذلك المخرج لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه وسلك باللفظ معهم المسلك الذى يسلكونه [٤٠] .

ويحتمل أن يكون بينهما كمال الانقطاع بلا إيهام ؛ لأن الجملة السابقة (أولم تؤمن) إنشائية لفظاً ومعنى ، وجملة (قال بلى) خبرية لفظاً ومعنى.

وفى التعبير السابق إيجاز بالحذف لأن (قال) فعل ماضى والفاعل محذوف يعود على سيدنا إبراهيم لدلالة السياق عليه ، وفيه حذف آخر ، لأن الواو فى قوله (ولكن ليطمئن قلبى) عاطفة على جملة محذوفة تقديرها : سألتك .

والحذف هنا أبلغ من الذكر ؛ لأن فيه الإيجاز والاختصار ، وهذا ما عبر عنه الإمام عبد القاهر بقوله : " فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن " [٤١] .

واللام فى (ليطمئن) لام التعليل ويطمئن فعل مضارع منصوب بأن مضمرة ، ولابد من تقدير محذوف ليصح تعليق اللام ، أى ولكن سألتك كيفية الإحياء ليطمئن قلبى ؟ فيقتضى تقدير هذا المحذوف تقدير محذوف

---

٣٩ - الآيات ٢٤ – ٢٨ من سورة الذاريات .
٤٠ - دلائل الإعجاز ص ٢٤٠ .
٤١ - دلائل الإعجاز ص ١٤٦ .

آخر قبل لكن حتى يصح الاستدراك والتقدير : قال : بلى أى آمنت وما سألتك عن غير إيمان ولكن سألتك ليطمئن قلبى [٤٢] .

وجملة (قال بلى) جملة مستأنفة مسوقة لتقرير الإيمان ، وأتى بـــــ (بلى) لأن (بلى) إيجاب لما بعد النفى معناه : بل آمنت ولكن ليطمئن قلبى ، ولو كان الجواب بنعم لكان كفراً ، ولا يقدح ذلك فى إيمان إبراهيم فإن الإنسان مؤمن برسول الله ، وبيت الله الحرام ، ولكن قلبه مشتاق ومضطرب لمشاهدة رسول الله وبيت الله الحرام غاية الاشتياق ، ومع ذلك لا يقدح فى إيمانه بما ذكر وكسؤال سيدنا موسى رؤية الله مع كونه فى أعلى مراتب الإيمان بالله .

فإن قلت : إن إيمان الأنبياء حق يقين ، لا علم يقين ، ولا عين يقين ، فكيف يطلب إبراهيم الانتقال من علم اليقين إلى عين اليقين مع أن مرتبته فوق ذلك ؟ أجيب بأن هذا الكلام بالنسبة للذات والصفات لوجودها بحيث لو كشف عنا الحجاب لرأيناها وأما إيجاد الله للأشياء فهو أمر اعتبارى ، يطلع الله على ذلك من خصه برحمته فلا يشاهده إلا من رآه بعينه ، وأجيب أيضا بأنه من أهل حق اليقين فى الجميع ، لأن الله يمثل لأحبابه الأمور الاعتبارية التى ستحصل فتصير كالمشاهدة الحاضرة ، فلا فرق فى حق اليقين بين شهود الذات والصفات والأفعال وإنما طلب ذلك لأجل تمام الاستدلال والاحتجاج على قومه وهذا هو الأتم [٤٣] .

والقلب فى قوله (ليطمئن قلبى) المراد به العلم ، وهذا مجاز بإطلاق المحل وإرادة الحالّ فيه ، إذ القلب لا يضطرب عند الشك ولا يتحرك عند إقامة الدليل وإنما ذلك للفكر ، وأراد بالاطمئنان العلم المحسوس وانشراح النفس به [٤٤] .

وتأمل بلاغة النظم القرآنى حيث أتى بلفظ (بلى) " فتحقق أن طلبه كيفية الإحياء ليس عن بقية تثبت فى الإيمان فكان فى إشعاره أن أكثر طالبى الكيف فى الأمور إنما يطلبونه عن وهن فى إيمانهم ومن

---

٤٢ - ينظر : البحر المحيط ٢ / ٦٤٤ .
٤٣ - ينظر : حاشية الصاوى ١ / ١١١ .
٤٤ - ينظر : التحرير والتنوير ٣ / ٤٠ .

طلب لتثبت الإيمان مع أن فيما دون الكيف من الآيات كفايته لم ينتفع بالآية فى إيمانه " [٤٥].

ولقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع فى قلب إبراهيم ومنحه التجربة الذاتية المباشرة فقال : { فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } .

لقد أمره أن يختار أربعة من الطير ، فيقربهن منه ، ويميلهن إليه ، حتى يتأكد من شياتهن ومميزاتهن التى لا يخطىء معها معرفتهن وأن يذبحهن ويمزق أجسادهن ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة ثم يدعوهن فتتجمع أجزاؤهن مرة أخرى وترتد إليهن الحياة ، ويعدن إليه ساعيات وقد كان طبعاً [٤٦].

وفصلت جملة (قال فخذ أربعة من الطير) عن الجملة التى قبلها (أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) ؛ لأن الفصل هنا فصل لكلام متكلم عن كلام متكلم آخر ، فضلاً عن كونه جواباً عن سؤال حقيقى ، ويجوز أن يكون سبب الفصل هو كمال الانقطاع بلا إيهام ، حيث إن الجملة الأولى وهى (أولم تؤمن) إنشائية لفظ ومعنى ، والجملة الثانية (قال فخذ) خبرية لفظاً ومعنى .

وقد أتى بالمسند فعلاً (قال) وحذف المسند إليه وهو لفظ الجلالة لدلالة السياق عليه .

وقوله (فخذ) الفاء لجواب شرط محذوف أى إن أردت ذلك فخذ[٤٧] ، وهذا التعبير من قبيل الإنشاء فهو فعل أمر مستعمل فى حقيقته ، وتأمل دقة النظم القرآنى فى اختيار الألفاظ ، حيث عبر بفعل الأمر (خذ) أى خذ أنت يا إبراهيم وليس أحد غيرك ، لتتأكد أن هذه الطيور حية فى يدك قبل أن تذبحها ، فضلاً عن أن التعبير بالأخذ يدل على (إمساكها

٤٥ - نظم الدرر ١ / ٥٠٩ .
٤٦ - ينظر : فى ظلال القرآن ٣ / ٣٠٢ .
٤٧ - ينظر : روح المعانى ٣ / ٢٨ .

بيده ليكون أثبت فى المعرفة بكيفية الإحياء ، لأنه يجتمع عليه حاسة الرؤية وحاسة اللمس " [٤٨] .

والمأخوذ هو (أربعة من الطير) ولم يذكر الله تعالى تعين الأربعة من أى جنس هى من الطير ، فيحتمل أن يكون المأمور به معيناً وما ذكر تعيينه ويحتمل أن يكون أمراً بأخذ أربعة ، أى أربعة كانت من غير تعيين إذ لا كبير علم فى ذكر التعيين [٤٩] .

وخص كونها من الطير ولم يقل من الوحش أو الحيوان ؛ لأنه أقرب إلى الإنسان ، وأجمع لخواص الحيوان ، ولذلك وقع فى الحديث [٥٠] : " لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً " [٥١] .

وقد اختلفوا فيما أخذ ، فقيل أخذ طاووساً ونسراً وديكاً وغراباً وقيل : أخذ حمامة وكركيا وديكاً وطاووساً ، وقيل أخذ طاووساً وديكاً ، ودجاجة سندية وأوزة [٥٢] .

وخص هذا العدد بعينه (أربعة) إشارة إلى الأركان الأربعة التى فى تركيب أبدان الحيوانات والنباتات [٥٣] .

وقيل : " جعلها أربعة ليكون وضعها على الجهات الأربع : المشرق والمغرب والجنوب والشمال لئلا يظن لبعض الجهات مزيد اختصاص بتأتى الإحياء " [٥٤] .

والطير : اسم جمع لما لا يعقل ، يجوز تأنيثه وتذكيره ، وهنا أتى مذكراً لقوله تعالى (وخذ أربعة من الطير) وجاء على الأفصح فى اسم الجمع فى العدد ، حيث فصل : بمن ، فقيل : أربعة من الطير

---

٤٨ - البحر المحيط ٢ / ٦٤٦ .
٤٩ - ينظر : البحر المحيط ٢ / ٦٤٥.
٥٠ - ينظر : روح المعانى ٣ / ٢٨ .
٥١ - رواه الترمذى فى كتاب الزهد – باب التوكل على الله ج ٤ رقم الحديث ٢٣٤٤ – تحقيق الشيخ / إبراهيم عطوة عوض – دار الحديث .
٥٢ - ينظر : الكشاف ١ / ٣٩٢ ، والبحر المحيط ٢ / ٦٤٥ .
٥٣ - ينظر : البحر المحيط ٢ / ٦٤٥ .
٥٤ - التحرير والتنوير ٣ / ٤٠ .

يجوز الإضافة كما قال تعالي تسعة رهط ونص بعض أصحابنا علي أن الإضافة لاسم الجمع في العدد نادرة لا يقاس عليها ونص بعضهم علي أن اسم الجمع لما لا يعقل مؤنس وكلا القولين غير صواب [٥٥].

والسبب فى كونها من الطير " لأن الطير همته الطيران فى السماء والارتفاع ، والخليل - عليه السلام - كانت همته العلو والوصول إلى الملكوت فجعلت معجزته مشاكلة لهمته " [٥٦].

ولعل السر أيضا : أن الطير أجسادهن نحيفة فما بالك عندما يقطعن ويتناثر كل جزء منهن على جبل فلا يجمع هذه الأجزاء المتناثرة ويحييها إلا الذى يقول للشيء كن فيكون .

وإنما لم تكن من جنس واحد ليظهر التمييز [٥٧]. أو أن " حكمة التعدد والاختلاف زيادة فى تحقق أن الإحياء لم يكن أهون فى بعض الأنواع دون بعض فلذلك عددت الأنواع " [٥٨].

وجيء بمن : للتبعيض للدلالة على أن الأربعة مختلفة الأنواع [٥٩].

وقوله (فصرهن إليك) أى أدنهن أو أيلهن يقال صاره بصوره ، ويصيره [٦٠] وقيل إن معنى (فصرهن إليك) بضم الصاد وكسرها بمعنى فاملهن واضممهن إليك [٦١] وقيل : أن معنى (صرهن) قطعهن [٦٢] . والأمر هنا على حقيقته .

ولعل الذى يترجح أن يكون معنى (صرهن) أضممهن إليك ، لأن التقطيع والذبح ليس فى الآية ما يدل عليه ، فكان إدراجه فى الآية إلحاقا لزيادة بالآية ، لم يدل الدليل عليها وأنه لا يجوز . كما أنه لو كان المراد بـ (صرهن) قطعهن لم يقل إليك ، فإن ذلك لا يتعدى

---

٥٥ - ينظر : البحر المحيط ٢ / ٦٤٦ .
٥٦ - البحر المحيط ٢ / ٦٤٥ .
٥٧ - ينظر : حاشية الصاوى ١ / ١١١ .
٥٨ - التحرير والتنوير ٣ / ٤٠ .
٥٩ - التحرير والتنوير ٣ / ٤٠ .
٦٠ - ينظر : التحرير والتنوير ٣ / ٤٠ .
٦١ - ينظر : الكشاف ١ / ٣٩٢ ، ونظم الدرر ١ / ٥١١ .
٦٢ - ينظر : إرشاد العقل السليم ١ / ٢٩٨ .

بـــ (إلى) وإنما يتعدى بهذا الحرف إذا كان بمعنى الإمالة ، وهناك دليل ثالث يدل على أن المراد بـــ (صرهن) أضممهن وهو : أن الضمير فى قوله (ثم ادعهن) عائد إليها لا إلى أجزائها وإذا كانت الأجزاء متفرقة متفاصلة ، وكان الموضوع على كل جبل بعض تلك الأجزاء يلزم أن يكون الضمير عائداً إلى تلك الأجزاء لا إليها وهو خلاف الظاهر ، وأيضا الضمير فى قوله (يأتينك سعيا) عائد إليها لا إلى أجزائها [٦٣] .

وإذا قيل : إن قوله (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا) يدل على أن تلك الطيور جعلت جزءاً جزءاً والجواب على هذا الوجه : أنه أضاف الجزء إلى الأربعة فيجب أن يكون المراد بالجزء هو الواحد من تلك الأربعة [٦٤] .

وتأمل بلاغة التعبير بقوله (فصرهن) أى : اضممهن إليك وتأمل أحوالهن ، وأجسادهن وأعضاءهن ، حتى تعلم بعد إحيائهن أنهن لم ينتقل جزء منهن عن موضعه فيكون ذلك أثبت فى أمرها .

بل إن هذا التعبير وهو قوله (فصرهن) " ينبىء والله - سبحانه وتعالى - أعلم أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - رباهن وغذاهن حتى عرفنه ، ليكون ذلك مثلاً لما لله - سبحانه وتعالى -فى خلقه من تربيتهم بخلقهم ورزقهم حتى عرفوه بما احتاجوا إليه ، فوجده معرفة عجز عنه لا معرفة نيل له ، فمتى دعاهم من أقطار الآفاق أجابوه إجابة هذه الطوائر لخليله بحظ يسير من تربيته لهن ، وإذا كانت هذه الأربع مجيبة للخليل - عليه السلام - بهذا الحظ اليسير من الصور والصغو فكيف تكون إجابة الجملة للجليل العزيز الحكيم " [٦٥] .

و (ثم) فى قوله (ثم اجعل ...) حرف عطف (عطف على محذوف دل عليه قوله (جزءاً) لأن تجزئتهن إنما تقع بعد الذبح ، فالتقدير : فاذبحهن ثم اجعل [٦٦] " والإتيان بحرف العطف (ثم) يفيد التراخى ، وهذه الإفادة هى التى عبر عنها الإمام عبد القاهر عندما كان يفرق بين حروف

---

٦٣ - ينظر : التفسير الكبير للرازى ٧ / ٣٧ .
٦٤ - ينظر : التفسير الكبير ٧ / ٣٨ .
٦٥ - نظم الدرر ١ / ٥١١ ، ٥١٢ .
٦٦ - التحرير والتنوير ٣ / ٤٠ .

العطف ويبين سبب اختصاص الواو بالفصل والوصل عن باقى حروف العطف فقال : " واعلم أنه إنما يعرض الإشكال فى الواو دون غيرها من حروف العطف وذاك لأن تلك تفيد مع الإشراك معانى مثل : أن (الفاء) توجب الترتيب من غير تراخ ، و (ثم) توجبه مع تاخ "[٦٧] . وهذا يناسب المقام ، فكأن المولى - سبحانه وتعالى - يأمر إبراهيم بأن يطيل النظر والتفكر والتأمل فى هذه الطيور الأربعة ، ويجعلها معه فترة طويلة ، ليتأكد من أجزائها وأشكالها حتى إذا ما أحياها الله بعد موتها ، تأكد أنه لم ينتقل جزء منها عن موضعه ، ويتأكد أن هذه بعينها هى التى ذبحها.

وهنا يظهر الفرق بين العطف بـــ (ثم) فى هذه الجملة ، والعطف بالفاء فى الجملة السابقة (فصرهن إليك) لأن الفاء تدل على الفور والترتيب ، مجرد أخذك لهذه الطيور الأربعة اضممهن إليك لتتأكد من أشكالهن وألوانهن .

كما أن العطف بـــ (ثم) فى قوله (ثم اجعل) " عطف بكلمة المهلة تجاوزاً بعد تربيتهن عن ذبحهن ودرسهن وخلطهن حتى صرن لحمة واحدة لا يبين فى جملتها شىء من الصور الذاهبة ، كما تصير المواليد تراباً عند موتها وتبددها صورة واحدة ترابية ، ليتطابق المثل والممثول مطابقة تامة إلى ما وراء ذلك من مجاوزة عبرة وروية "[٦٨] .

والتعبير بفعل الأمر (اجعل) يحتمل أن يكون بمعنى : ألقى ، فيتعدى لواحد ويتعلق (على كل جبل) بـــ (اجعل) ويحتمل أن يكون بمعنى : صير فيتعدى إلى اثنين ويكون الثانى على كل جبل فيتعلق بمحذوف[٦٩] .

وتأمل التعبير بفعل الأمر (اجعل) الذى جاء على حقيقته والفاعل محذوف ، تقديره : اجعل أنت بنفسك لا أحد آخر ، أو لا بمساعدة أحد آخر لتتأكد من قدرة الخالق وأنت تنظر إلى هذه الواقعة بنفسك التى لم يشاركك فيها أحد .

---

٦٧ - دلائل الإعجاز ص ٢٤٤ .
٦٨ - نظم الدرر ١ / ٥١٢ .
٦٩ - ينظر : البحر المحيط ٢ / ٦٤٧ .

والتعبير بقوله (على كل جبل) يفيد العموم فى كل جبل مخصص بوصف محذوف : أى : يليك أو : بحضرتك دون مراعاة عدد ... وخصصت الجبال بعدد الأجزاء فقيل أربعة ، وقيل : سبعة ، وقيل : عشرة .

والظاهر أنه أمر أن يجعل على كل جبل ثلاثة مما يشاهده بصره بحيث يرى الأجزاء وكيف تلتئم إذا دعا الطيور " [٧٠] .

وتخصيص جعلها (على كل جبل) لا على أى مكان آخر ، لأن الجبال مرتفعة وهى لارتفاعها أمكن فى الرؤية وأبعد من الاشتباه .

كما أن ذكر : كل جبل يدل على أنه أمر بجعل كل جزء من أجزاء الطير على جبل ، لأن وضعها على الجبال تقوية ، لتفرق تلك الأجزاء ، فإنها فرقت بالفصل من أجسادها وبوضعها فى أمكنة متباعدة وعسرة التناول [٧١] .

والتعبير بقوله (منهن) يدل على ذبحهن وتقطيعهن وتمزيقهن .

والتعبير بقوله (جزءاً) يدل على تجزئتهن وتفرقتهن وتأمل التعبير بالجزء مع أن الأجزاء فى ظاهرها يشبه بعضها بعضاً ومع ذلك فكل جزء عندما يدعهن سيدنا إبراهيم ينضم إلى طيره .

أضف إلى ذلك تقديم لفظ (منهن) على (جزء) لأن (منهن) جار ومجرور متعلق بمحذوف حال لأنه كان فى الأصل صفة لـ (جزء) فلما تقدمت على الموصوف أعربت حالاً ، وجزءاً هو المفعول الأول [٧٢] ، والسر البلاغى للتقديم هو التخصيص لهن باعتبارهن موضع الشاهد .

وهذا طريق من طرق القصر أشاد ببلاغته الإمام عبد القاهر فقال : " هو باب كثير الفوائد ، جمع المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضى بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعراً

---

٧٠ - البحر المحيط ٢ / ٦٤٧ .
٧١ - ينظر : التحرير والتنوير ٣ / ٤٠ .
٧٢ - ينظر : إعراب القرآن وبيانه ١ / ٤٠٣ .

يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان " [٧٣] .

وبعد أن فعل إبراهيم ما أمره به المولى - سبحانه وتعالى -قال له بعد ذلك : (ثم ادعهن يأتينك سعيا) .

ما زال النظم القرآنى يستعمل من حروف العطف (ثم) التى تفيد التراخى والمهلة ، ولعل وراء هذا الاستعمال سر بلاغى مفاده أن سيدنا إبراهيم جعل على كل جبل جزءاً من هذه الطيور وتركها وقتاً طويلاً حتى بليت وصارت تراباً ومع ذلك لما دعاها أتته وهى تسعى بإذن الله ، وفى ذلك إمعان التأكيد على قدرة الله ومعجزة أكبر على إحياء الموتى .

لأنه لو دعاها بعد أن فرق أجزاءها ، لقلنا : إن أجزاءها ما زالت نضجة لم تجف ولم تبل ، ولكن تركها وقتاً طويلاً يفيد تآكل لحمها وتفتيت عظمها ومع ذلك لما دعاها أتته وهى تسعى .

وقوله (ادعهن) أى خاطبهن وقل لهن تعالين بإذن الله ، و(ادعهن) فعل أمر مستعمل فى حقيقته ويلتزم سيدنا إبراهيم بذلك ليصل إلى جواب سؤاله من خلال التجربة العملية التى يقوم بها ، وبذلك تكون النتيجة أوضح لديه من أن يقوم بها أحد غيره ، والفاعل ضمير مستتر يعود على سيدنا إبراهيم ، حذف لدلالة الكلام عليه .

" وأمره بدعائهن وهن أموات إنما هو لتقرب الآية منه وتكون بسبب من حاله ويرى أنه قصد يعرض ذلك عليه " [٧٤] .

وقوله (يأتينك سعياً) أى ساعيات مسرعات فى طيرانهن أو فى مشيهن على أرجلهن [٧٥] ، و(يأتينك) فعل مضارع مبنى على السكون فى محل جزم جواب الطلب والنون فاعل ، والكاف مفعول ، والتعبير بالمضارع هنا لاستحضار حالة إتيان الطير وهى تسعى إليه ويشاهد ذلك رأى العين ، فمجيء الإتيان على صورة المضارع تلك الصيغة الكاشفة التى تصف الحدث وهو يقع أتم وصف ، وتبينه أبلغ بيان .

---

٧٣ - دلائل الإعجاز ص ١٠٦ .
٧٤ - المحرر الوجيز ١ / ٣٥٥ .
٧٥ - ينظر : الكشاف ١ / ٣٩٢ .

وقوله : (سعيا) السعى : من أنواع المشى لا من أنواع الطيران ، فجعل ذلك آية على أنهن أعيدت إليهن حياة مخالفة للحياة السابقة ، لئلا يظن أنهن لم يمتن تماماً [٧٦].

وقيل : (يأتينك سعياً) أى : ساعيات مسرعات ، طيراناً أو مشياً[٧٧].

وفى التعبير بقوله (سعياً) استعارة حيث استعار - السعى - وهو فى الأصل من أنواع المشى لا من أنواع الطيران - لإتيان هذه الطيور إليه لما دعاها بجامع الوصول فى كل .

وتأمل تعبير النظم القرآنى بقوله (سعيا) ولم يقل (طيراناً) لأنه إذا أتته وهى ساعية ، كان أثبت لنظره عليها من أن تكون طائرة ، ليتأملها ويتأمل أشكالها وألوانها ، وهل هذه الطيور هى التى ذبحها وقطعها أم لا ؟

وكان إتيانهن مسرعات فى المشى أبلغ فى الآية إذ إتيانهن إليه من الجبال يمشين مسرعات هو على خلاف المعهود لهن من الطيران ، وليظهر بذلك عظم الآية إذ أخبره أنهن يأتين على خلاف عادتهن من الطيران فكان كذلك وإتيانهن سعياً أيضا ليناسب المقام ، لأن إحياءهن على خلاف العادة فكذلك سعيهن كان على خلاف العادة ، وجعل سيرهن إليه سعياً إذ هو مشية المجد الراغب فيما يمشى إليه لإظهار جدها فى قصد إبراهيم وإجابة دعوته[٧٨].

فضلاً عن أن التعبير بالسعى يوحى أن هذه الطيور جاءت إلى سيدنا إبراهيم لما دعاها وهى متذللة ، لأن " السعى هو العدو ، والقصد المسرع يكون فى الحس والمعنى فى إتيان الطائر طائراً حظ من منته ، وفى إتيانه سعياً حظ من ذلته فلذلك جلبهن عليه سعياً بحال المتذلل الطالب للرزق ، والأمنة من اليد التى عهد منها الرزق والجنبة التى ألف منها الأمن ... وليس ذلك بأعجب من مشى الأحجار تارة والأشجار كسرة وأغصانها أخرى إلى خدمة ولده المصطفى ﷺ " [٧٩].

---

٧٦ - ينظر : التحرير والتنوير ٣ / ٤٠ .
٧٧ - البيضاوي ضمن حاشية الشهاب ٢ / ٣٤١ .
٧٨ - ينظر : البحر المحيط ٢ / ٦٤٧ .
٧٩ - نظم الدرر ١ / ٥١٢ .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله (واعلم أن الله عزيز حكيم) أى : اعلم أن الله - تعالى - غالب على أمره ، قاهر فوق عباده ، حكيم فى كل شئونه وأفعاله ، وبذلك تكون هذه الآية والآيات التى قبلها قد ساقتا أبلغ الأدلة والشواهد على قدرة الله - تعالى - وعلى أنه هو المستحق للعبادة والخضوع وعلى أن ما أخبر به من صحة البعث والنشور حق لا ريب فيه[٨٠] .

وعطف جملة ، (واعلم أن الله عزيز حكيم) على جملة (ثم ادعهن يأتينك سعيا) لأن الجملتين إنشائيتان لفظاً ومعنى ، وهذا ما يسمى بالتوسط بين الكمالين .

وقد أشار إلى ذلك الموضع صاحب الإيضاح بقوله : " الوصل للتوسط بين الكمالين "[٨١] .

وقد بدأت هذه الجملة بفعل الأمر (اعلم) الذى خرج من معناه الحقيقى إلى معنى الدوام والاستمرار على الثبات على العلم المطلوب والمداومة عليه والازدياد منه ؛ لأن سيدنا إبراهيم – عليه السلام – يعلم أن الله عزيز حكيم من قبل ذلك والمعنى : ها أنت يا إبراهيم قد شاهدت بعينك قدرة الله على إحياء الموتى واعلم تمام العلم بأن الله عزيز غالب لا يعجزه شىء حكيم فى صنعه وتدبيره ، فليس بناء أفعاله على الأسباب العادية لعجزه عن إيجادها بطريق آخر خارق للعادات ، بل لكونه متضمناً للحكم والمصالح .

وقد جاءت جملة (إن الله عزيز حكيم) مؤكدة ، بـ (إن) واسمية الجملة ، وذلك مناسب للمقام ؛ لأن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يؤمن تمام الإيمان بأن الله قادر على إحياء الموتى ، ولكن كان يتشوق ويتطلع إلى رؤية ذلك رأى العين حتى ينتقل إلى مرتبة المعاينة فى دليل البعث فأكد له الكلام ليصل إلى درجة اليقين التى لا تحتاج إلى سؤال آخر ، فضلاً عن أن سيدنا إبراهيم لما كان يتطلع إلى مشاهدة إحياء الله للموتى فكأنه بذلك يطلب نوعاً من التأكيد فجاء التعبير مؤكداً ليلبى رغبته ويطفئ شوقه .

---

٨٠ - ينظر : البحر المحيط ٢ / ٦٤٩ .

٨١ - الإيضاح ٣ / ١٢٧ .

وخص (عزيز حكيم) من بين سائر أسمائه - تعالى - ، لأن إحياء الموتى أمام عين سيدنا إبراهيم من آثار عزة الله تعالى فهو عزيز لا يغلبه ولا يقهره شيء (حكيم) ذو حكمة بالغة فى أفاعله يضع الأشياء فى مواضعها ؛ لأن : الحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل ، وهى من الله " معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام " وبهذا المعنى جاء الحكيم وصفاً لله -سبحانه وتعالى - فى هذا المقام .

فضلاً عن التعبير بقوله (حكيم) فيه إشعار بأنه - سبحانه وتعالى - جعل الأشياء بعضها من بعض كائنة ، وبعضها إلى بعض عامدة ، وبعضها من ذلك البعض معادة { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وفِيهَا نُعِيدُكُمْ ومِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } [٨٢] وهذه الحكمة التى أشار إليها اسمه الحكيم حكمة ملكوتية جامعة لوصلة ما بين حكمة الدنيا وحكمة الآخرة لأن الحكيم بالحقيقة ليس من علمه الله حكمة الدنيا وألبس عليه جعله لها بل ذلك جاهلها كما تقدم ، إنما الحكيم الذى أشهده الله حكمة الدنيا أرضاً وأفلاكاً ونجوماً وآفاقاً وموالد وتوالداً وأشهده أنه حكيمها ومزج له علم حكمة موجود الدنيا بعلم حكمة موجود الآخرة ، وأراه كيفية توالج الحكمتين بعضها فى بعض ومآل بعضها إلى بعض حتى يشهد دوران الأشياء فى حكمة أمر الآخرة التى هى غيب الدنيا إلى مشهود حكمة الدنيا ، ثم إلى مشهود حكمة الآخرة كذلك عوداً على بدء وبدءا على عود فى ظهور غيب الإبداء إلى مشهودة وفى عود مشهودة إلى غيبه " [٨٣] .

كما أن فى هذه الآية إيجازاً بالحذف ، إذ حكى الله - سبحانه وتعالى - أوامره ، وحذف تتمة القصة ولم يتعرض لامتثال إبراهيم - عليه السلام - لها لأن ذلك مدرك بالبداهة [٨٤] .

وبذلك يتبين لنا كم حوت هذه الآية من مواطن البلاغة ، حيث جمعت بين الأسلوب الخبرى والأسلوب الإنشائى ، كذلك جمعت بين أسلوب الفصل والوصل ، كما جاء فى الآية أسلوب الإيجاز بالحذف وجمعت كثيراً من ألوان البيان فضلاً عن ألوان البديع وقد كان لكل أسلوب من الأساليب البلاغية المتقدمة جماله ووقعه على النفس .

* * * * *

---

٨٢ - الآية ٥٥ من سورة طه .

٨٣ - نظم الدرر ١ / ٥١٣ .

٨٤ - ينظر : الجدول فى إعراب القرآن الكريم ٣ / ٤٢ .

المبحث الثاني

خطاب سيدنا سليمان للهدهد

ورد هذا الخطاب فى قول الله - تعالى – فى سورة النمل : { قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .

مناسبة الآيات لما قبلها :

لما توعد سيدنا سليمان - عليه السلام - الهدهد ، إذا ثبت غيابه ولم يكن له عذر وجيه حال بينه وبين الحضور لما حشر لسليمان جنوده وكان الهدهد حاضراً لا غائباً ، فتقدم نحو سليمان وقص عليه قصته وما شاهده فى مملكة سبأ ، من أن امرأة تحكم أهل سبأ ولها عرش عظيم ، وأنها وقومها وثنيون يعبدون الشمس من دون الله ، وأن الشيطان زين لهم الكفر والعصيان ، عندئذ أرجأ سليمان - عليه السلام - عقاب الهدهد حتى يتبين له صدقه من كذبه فى القصة التى قصها عليه ، وهذا هو الموقف المحمود من أنبياء الله ورسله ومن العقلاء جميعاً ، إنه التثبت واستقصاء الحقائق ثم اتخاذ ما يناسب الواقع بعد وضوحها [٨٥] .

من الأسرار البلاغية فى الآيات :

بدأت هذه الآيات بالفعل الماضى (قال) وبذلك يكون المسند قد أتى فعلاً ، ومجىء المسند فعلاً فى هذا السياق أفاد حصول الحدث وهو القول فى زمن معين بإيجاز .

ونلاحظ فى هذا التعبير (قال سننظر) حذفاً للمسند إليه ، لأن الضمير يعود على سيدنا سليمان والتقدير : قال سليمان سننظر ، وحذف المسند إليه لوجود قرينه تدل عليه لأنه سبق ذكره فى الآيات السابقة ، وإذا دل على المحذوف دليل ، كان الحذف جائزاً ، لأن المحذوف حينئذ فى حكم المعلوم لوجود القرينة الدالة عليه .

وهذا ما عبر عنه علماء البلاغة بقولهم : " أما حذفه فإما لمجرد الاختصار والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر " [٨٦] .

---

٨٥ - ينظر : التفسير البلاغى ١٣٢ : ١٣٣ .

٨٦ - الإيضاح ٢ / ٤ .

وقد فصلت جملة (قال سننظر ...) عن الكلام الذى قبلها ؛ لأن الفصل هنا فصل لكلام متكلم عن كلام متكلم آخر ، فضلاً عن كونه جوابا عن سؤال حقيقى .

وتأمل اقتران الفعل المضارع بالسين (سننظر) والسين للمستقبل القريب ، بعكس سوف التى تستعمل للمستقبل البعيد ، وكأن سيدنا سليمان سيبحث كلام الهدهد فى غاية من السرعة لما يترتب عليه من أمر خطير .

كما أن السين فى (سننظر) للتأكيد أى قال : سيدنا سليمان لله للهدهد وبعد أن استمع إلى حجته : سننظر أيها الهدهد فى أقوالك ونرى أكنت صادقاً أم كنت من الكاذبين ؟

وفى التعبير بقوله (سننظر) استعارة تصريحيه تبعية ، لأن المعنى : سنتأمل ونتصفح الحقائق ، وهما أمران ذهنيان فشبه التأمل بالنظر بالعين الباصرة ، إشارة إلى عمق التأمل وقوته حتى لكأنه يرى رؤية إبصار والجامع بين الطرفين قوة التحقق [٨٧] .

ولما كان قوله تعالى (قال سننظر) فيه إجمال وإبهام فصل هذا الإجمال بقوله تعالى { قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكَاذِبِينَ } .

وتكمن بلاغة الإيضاح بعد الإبهام فى أنه يبرز : " المعنى فى صورتين مختلفتين ، أو ليتمكن فى النفس فضل تمكن ، فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك فإذا ألقى كذلك تمكن فضل تمكن وكان شعورها به أتم " [٨٨] .

وتأمل تعبير النظم القرآنى حيث قال (سننظر أصدقت ...) ولم يقل سننظر فى أمرك ؛ لأن الهدهد لما صرح بفخر العلم فى قوله { أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ } [٨٩] صرح له سليمان بقوله : " سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين " فكان ذلك كفاء لما قاله [٩٠] .

---

٨٧ - ينظر : التفسير البلاغى للاستفهام ٣ / ١٣٤ .
٨٨ - الإيضاح ٣ / ١٩٦ ، ١٩٧ .
٨٩ - من الآية ٢٠ من سورة النمل .
٩٠ - الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ١٨٩ .

فضلاً عن دقة النظم القرآنى فى ترتيب الكلمات ، حيث قدم الصدق على الكذب (أصدقت أم كنت من الكاذبين) لأنه الأهم ، ولشرفه وابتهاج سليمان به ، لأنه كشف ذو خطر الذى قصه عليه الهدهد ، ونعمة جليلة الشأن يمن الله بها عليه ، وثمرة حلوة المذاق من فخامة الملك الذى جعله الله لسليمان فضلا عن إيثار الماضى (أصدقت) ، وهذا بيان مترجم عما فى نفس سليمان من تحقق ما قصه عليه الهدهد من بشريات ، أضف إلى ذلك أن النظم القرآنى عبر بقوله (أم كنت من الكاذبين) ولم يعبر بقوله (أم كذبت) لنكات بلاغية فى المعدول إليه لم توجد فى المعدول عنه من حيث اللفظ ومن حيث المعنى - فمن حيث اللفظ توافق رؤوس الآيات وبناء الفواصل على حرف المدمن الياء والواو ، وهو سمة بيانية من سمات النظم القرآنى الحكيم ، يجعل لسماع القرآن شَنفاً في الأذان ويهز أوتار النفس بعذوبته وحسن جرسه ، فيقود السامع إلى الإقبال عليه والتأمل فى معانيه ، ومن حيث المعنى فإن القرآن لا يثبت الوصف فى الفواصل بحسب جرى الوصف عليه بل يذكر الحقيقة الكلية ليندرج تحتها المحدَّثُ عنه ، والحقيقة الكلية - هنا - هى (الكاذبين) أى الذين استقر وصفهم بالكذب وصار سجيه فيهم وعرفوا به _ وإنما نعت سليمان - عليه السلام - الهدهد بهذا الوصف الراسخ على تقدير أنه سيكون غير صادق ، لأن الأمر الذى أبلغه به خبر خطير ، لا يجرؤ أحد على الإخبار به كذباً إلا من تأصل الكذب فى طباعه وصار سجية فيه ، لذلك عبر عنه بالفعل (كنت) أما من (من الكاذبين) فتحتمل البيانية والبعضية ، أى أم كنت منتمياً إلى حقيقة الكاذبين أو كنت بعض المنتمى إلى حقيقة الكاذبين [٩١] .

فضلاً عن أن التعبير بقوله (أم كنت من الكاذبين) أبلغ من قوله (أم كذبت) لأنه يفيد أنه إن كان كاذباً فى هذه الحادثة ، كان معدوداً من الكاذبين ومحسوباً منهم والكذب له عادة وليست فلتة يعفى عنها فيها ، لأن الكذب على الأنبياء أمره عظيم [٩٢] .

---

٩١ - ينظر : التفسير البلاغى ٣ / ١٣٤ ، ١٣٥ .

٩٢ - ينظر : حاشية الصاوى ٣ / ١٦١ .

كما أن جملة (من الكاذبين) أشد فى النسبة إلى الكذب بالانخراط فى سلك الكاذبين بأن يكون الكذب عادة له وفى ذلك إيذان بتوضيح تهمته بالكذب ليتخلص من العقاب ، وإيذان بالتوبيخ والتهديد وإدخال الروع عليه بأن كذبه أرجح عند الملك ليكون الهدهد مغلباً الخوف على الرجاء ، وذلك أدخل فى التأديب على مثل فعلته وفى حرصه على تصديق نفسه بأن يبلغ الكتاب الذى يرسله معه [٩٣] .

والمقصود من الخبر فى قوله (قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) هو التهديد والوعيد والتحذير وهذا من الأغراض البلاغية التى يخرج إليها الخبر.

كما أنه يلاحظ فى قول سيدنا سليمان السابق صورتى استفهام فى قوة الصورة الواحدة :

أحداهما : (أصدقت) .

والثانية : (أم كنت من الكاذبين) .

والواقع أن هاتين الصورتين وإن جاءا على لفظ الاستفهام ، فالاستفهام فيهما صورى ، لأنه شرح للنظر الوارد فى قول سليمان - عليه السلام - (سننظر) يعنى سنتبين إن كان قولك صادقاً أو كاذباً .

ولذلك لا يراد من هذين الاستفهاميين تقرير ولا إنكار وإنما هما سيكونان ثمرة البحث والنظر .

ولما كان طرفا الترديد هنا وهما الصدق والكذب مجهولين قبل النظر والتثبت شبها بالمستفهم عنه استفهاماً حقيقياً فاستعمل فى تعيين الثابت منهما أداتى الاستفهام الهمزة وأم المتصلة ، المستعملتين فى طلب تعيين أحد الأمرين .

وشاهدنا الهمزة فيه للتصور ؛ لأن من خصائص الهمزة : أنها ترد لطلب التصور نحو : أزيد قائم أم عمرو ، ولطلب التصديق نحو : أزيد قائم؟ والفرق بين التصور والتصديق ، أن التصديق هو : إدراك مطابقة النسبة الكلامية للواقع أو عدم مطابقتها [٩٤] ، والتصور هو : إدراك غير النسبة [٩٥] .

---

٩٣ - ينظر : التحرير والتنوير ١٩ / ٢٥٦ .

٩٤ - ينظر : حاشية الدسوقى ٢ / ٢٤٧ ضمن الشروح .

٩٥ - ينظر / مختصر سعد الدين على تلخيص المفتاح ٢ / ٢٤٨ ضمن الشروح

فأشبه هذا الاستعمال المجاز المرسل المركب والمعنى سننظر فيما قلت نظراً يتضح بسببه صدقك أو كذبك [٩٦].

وتأمل الطباق بالمعنى فى قوله (أصدقت أم كنت من الكاذبين) وهو أبلغ من المطابقة باللفظ ، لأن الجملة الثانية اسمية وهى تفيد الثبوت

أضف إلى ذلك أن الطباق من المحسنات البديعية المعنوية التى تكسو اللفظ حلاوة وتزيده طلاوة ، وتؤكد المعنى فى ذهن السامع أشد تأكيد ، وها هو شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر يتحدث عن بلاغة الطباق فيقول : " أما التطبيق فأمر أبين ، وكونه معنوياً أجلى وأظهر ، وهو مقابلة الشئ بضده ، والتضاد بين الألفاظ المركبة محال وليس لأحكام المقابلة ثم مجال " [٩٧].

ولما كان قوله (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) فيه نوع من الإبهام والإجمال جاءت جملة { اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } مبينة ومفصلة للجملة السابقة " لأن فيما سينكشف بعد توجيه كتابه إلى ملكة سبأ ما يصدق خبر الهدهد إن جاء من الملكة جواب عن كتابه أو يكذب خبر الهدهد إن لم يجىء منها جواب " [٩٨].

ولذلك فصلت جملة (اذهب بكتابى هذا) عن الكلام الذى قبلها ؛ لأن ما قبلها فيه شىء من الخفاء والإبهام ، يّا ترى كيف سيتحقق سيدنا سليمان من صدق الهدهد أو كذبه ، فجاءت هذه الجملة(اذهب بكتابى) لتوضح هذا الغموض ، وتزيل هذا الخفاء ، وبذلك يكون قد تحقق موطن من مواطن الفصل وهو كمال الاتصال ؛ لأن الجملة الثانية نزلت من الجملة الأولى منزلة البيان من المبين .

والمعنى : أن سيدنا سليمان - عليه السلام - كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها يدعوها فيه إلى الإيمان والإسلام لله رب العالمين ، وأعطاه للهدهد وأمره أن يلقيه إليهم ثم يبتعد عنهم قريباً ويتأمل رد الفعل وما يراجع بعضهم بعضاً القول ويناقش فيه .

---

٩٦ - ينظر : التفسير البلاغى للاستفهام ٣ / ١٣٣ .
٩٧ - أسرار البلاغة ص ٢٨ – دار المعرفة – بيروت .
٩٨ - التحرير والتنوير ١٩ / ٢٥٦ : ٢٥٧ .

والأمر فى قوله (اذهب) على حقيقته لأنه طلب للفعل على وجه الاستعلاء والإلزام ، ومعلوم أن الاستعلاء فى بيان القرآن الكريم يقتضى علو الآمر - عز وجل - حقيقة [٩٩] .

وصيغة الأمر - هنا - جاءت مناسبة للسياق ، وبخاصة أن سيدنا سليمان يريد أن يتأكد من صدق كلام الهدهد فيما أخبره به فضلاً عن أن الهدهد يريد أن يثبت صدقه لسيدنا سليمان ، ولذلك يلمح فيها جانب الفور والسرعة . .

والضمير فى (اذهب) يعود إلى الهدهد ، وخص الهدهد بإرساله بالكتاب ، لأنه المخبر بالقصة ، ولكونه رأى منه من مخايل الفهم والعلم ما يقتضى كونه أهلاً للرسالة [١٠٠] .

وتأمل تعبير القرآن عندما عدل عن : مكتوبى إلى (كتابى) لما فى المعدول إليه من القوة والثبات ، لأنه فى الأصل (مصدر) ومكتوبى اسم فاعل مشتق ، والمصدر أصل المشتقات ، وإضافة (كتاب) إلى ضميره - سليمان عليه السلام - هكذا (كتابى) للتعظيم ، لأنه كتاب رسول كريم ، فضلاً عن أن إبدال اسم الإشارة (هذا) من (كتابى) فيه تقرير وتثبيت للمعنى ، وللدلالة على الاهتمام به ، وأن سليمان هو الذى سلم الهدهد الكتاب ، وعطف (ألقه) بالفاء إشارة إلى تكليف الهدهد بسرعة القيام بما كلّف به ، وعُدِّى الفعل (القه) بحرف الجر (إلى) دون (على) لتضمين (القه) معنى : وَصِّله ، وجمع الضمير (إليهم) ولم يقل: إليها ، لأن الكتاب كان دعوة عامة لأهل سبأ للدخول فى الإيمان بالله وطاعة رسوله الكريم - عليه السلام - وعطف الفعل (تول) بـ (ثم) المفيدة للتراخى الزمنى فى التولى لما فيه من الأدب فى الأداء ، وحسن الانصراف فى مقام الملوك أى تول عنهم فى لطف وهدوء ، وعطف (انظر) بالفاء إشارة إلى سرعة حصول الترقب لما يترتب عليه من أحداث جسام ، وفى (يرجعون) استعارة تصريحيه تبعية ، لأن الرجوع فى الأصل العود إلى جهة غير الجهة المقصودة بالسير ، فهو أمر حسى بمعنى الانتقال من مكان

---

٩٩ - ينظر : المطول ٢٣٩ .

١٠٠ - ينظر : فتح البيان ١٠ / ٣٧ ، ٣٨ .

إلى مكان ، وقد استعير - هنا - لعكس الاتجاه الفكرى الذى كانوا فيه والجامع بين الطرفين كون كل منهما انتقال من حال إلى حال أخرى مع ترتب هذا الانتقال على سبب خاص[١٠١] .

أرايت دقة النظم القرآنى فى التعبير بالألفاظ الموحية التى تصف الحدث وصفاً دقيقاً ومن ينعم النظر مرة أخرى سيظهر له كثير من الأسرار البلاغية التى لم تظهر له لأول وهلة ، لأن القرآن الكريم مثل الأرض الزراعية كلما ازددت لها حرثاً ازدادت لك إخراجاً للثمار فكذلك القرآن كلما عاودت فيه النظر ظهر لك أسرار غير الأولى ، ودقائق لا تتأتى لك إلا بالتأنى فى الفكر والعمق فى الفهم فعاود النظر فى اسم الإشارة مرة أخرى (اذهب بكتابى هذا) تجد اسم الإشارة يدل على أن الكتاب مكتوب وهو حاضر أمامه وقت أن أمره ، فضلاً عن أن هذا التعبير فيه دليل على إرسال الكتب إلى المشركين من الإمام يبلغهم الدعوة ويدعوهم إلى الإسلام ، وقد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وغيرهما من ملوك العرب .

كما أن حرف العطف (ثم) فى قوله (ثم تول) يوحى بأن سيدنا سليمان يأمر الهدهد أن ينتظر عندهم بعض الوقت ويكون قريباً منهم بحيث يسمع مراجعتهم " لأن التولى بالكلية ينافى قوله (فانظر ماذا يرجعون)"[١٠٢] .

فضلاً عن أن حرف العطف (ثم) يفيد أن سيدنا سليمان أمره أن يمكث بعد إلقائه يرفرف على رؤوسهم حتى يتحققوا أمره ، فأشار - سبحانه - إلى ذلك بأداة التراخى (ثم)[١٠٣] .

وقوله : (ماذا يرجعون) إن جعل انظر بمعنى انتظر ، (فماذا) بمعنى الذى ، ويرجعون صلته والعائد محذوف ويكون ما مفعول يرجعون والمعنى انتظر الذى يرجعونه . وإن جعل بمعنى تأمل وتفكر ، كانت ما استفهامية ، وذا بمعنى الذى ويرجعون صلتها والعائد محذوف والتقدير : أى شىء الذى

---

١٠١ - ينظر : التفسير البلاغى للاستفهام ٣ / ١٤٠، ١٤١ .
١٠٢ - روح المعانى ١٩ / ١٩٣ .
١٠٣ - ينظر : نظم الدرر ٥ / ٤٢٢ .

يرجعونه ، والموصول هو خبر ما الاستفهامية أو ماذا كلها اسم واحد مفعول ليرجعون تقديره : أى شيء يرجعون [١٠٤] .

والاستفهام فى قوله (ماذا يرجعون) ليس استفهاماً اصطلاحيا ، وإن جاء على صيغ الاستفهام ، بل هو بيان وكشف وتفصيل للفعل الذى قبله ، فبين بـ (ماذا يرجعون) أى ماذا سيكون من ملكه سبأ وقومها ، بعد أن يصلهم كتاب سليمان - عليه السلام - [١٠٥] .

والإلقاء فى قوله (فألقه إليهم) الرمى إلى الأرض ، ويحتمل أن يكون مستعملاً فى حقيقته إن كان شأن الهدهد أن يصل إلى المكان فيرمى الكتاب من منقاره ، وإما فى مجازه إن كان الهدهد يدخل المكان المرسل إليه ، فيتناول أصحابه الرسالة من رجله التى تربط فيها الرسالة فيكون الإلقاء مثل قوله تعالى { فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } فى سورة النمل"[١٠٦] .

١٠٤ - ينظر : حاشية الصاوى ٣ / ١٦١ .
١٠٥ - ينظر : التفسير البلاغى ٣ / ١٣٦ .
١٠٦ - ينظر التحرير والتنوير ١٩ / ٢٥٧ .

المبحث الثالث

خطاب سيدنا إبراهيم للأصنام

ورد هذا الخطاب فى قول الله – تعالى- فى سورة الصافات : { فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ } الآيات ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ .

مناسبة هذه الآيات لما قبلها :

هذه الآيات تتحدث عن قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - مع أبيه وقومه ، ومواجهة عقيدة الوثنية التى كانوا يعتقدونها ، فلما يئس إبراهيم – عليه السلام – من هداية قومه ، انتقل من مواجهتهم إلى مواجهة أصنامهم، وكان قد أقسم لأبيه وقومه ليفعلن بأصنامهم ما يغيظهم فقال : { وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ }[١٠٧] ولكن قبل أن يقدم على تحطيم الأصنام وقف أمامها ، وكأنه يجرى معها حواراً .

من الأسرار البلاغية فى الآيات :

بدأ النظم القرآنى بالفعل (فراغ) والفاء التى سبقت هذا الفعل عاطفة ، حيث عطفت هذه الجملة على جملة (تولوا) ، و (راغ) فعل ماض ، وهذا الفعل يوحى بأن سيدنا إبراهيم ذهب إلى أصنامهم فى خفية وبدون أن يشعر به أحد ، لكى يبر قسمه ويشفى غليل صدره .

كما أن سر التعبير بالفعل (راغ) مخاتلة لهم ولأجل الإشارة إلى تضمنيه معنى الذهاب عدى بـــ (إلى)[١٠٨] .

كما أن فى الفعل (راغ) استعارة ، حيث استعار الروغ – وهو فى الأصل من روغان الثعلب وهو تردده وعدم ثبوته ، وجاء فى مختار الصحاح " راغ الثعلب من باب قال وروغانا بفتحتين ، والاسم منه الرواغ بالفتح وأراغ وارتاغ ، أى : طلب وأراد ، وراغ إلى كذا : مال إليه سراً وحاد "[١٠٩] – لذهاب سيدنا إبراهيم إلى الأصنام خفية بجامع الخفاء والستر والمخادعة فى كل .

---

١٠٧ - الآية ٥٧ من سورة الأنبياء .
١٠٨ - التحرير والتنوير ٢٣ / ١٤٣ .
١٠٩ - مختار الصحاح (روغ) .

واشتق من الروغ بمعنى الذهاب الفعل (راغ) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

والذى راغ هو سيدنا إبراهيم ولكنه حذف إما للعلم به ؛ لأنه سبق ذكره فى الآيات السابقة .

أو أن حذفه كان مناسباً للمقام ، فكما أن سيدنا إبراهيم ذهب إلى الأصنام خفية ولم يشعر به أحد ، كذلك لم يصرح النظم القرآنى باسمه ليذهبوا إليها ويسألوها من الذى كسرها ، فإن كانت آلهة – كما زعموها – ستجيبهم ، وإلا سيتبين لهم كذب اعتقادهم ، وأن هذه أصنام لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تعقل ، وفى ذلك زجر وتوبيخ وتهكم بهم لعلهم يرجعون إلى رشدهم ويفيقون من غفلتهم .

وقوله (إلى آلهتهم) أى : إلى أصنامهم التى هى فى زعمهم آلهة ، وتأمل سر التعبير بقوله (آلهتهم) ، ولم يقل : إلى أصنامهم ، مع أنه على يقين كامل بأن هذه أصنام وليست آلهة ، ولكن جاء التعبير بقوله : آلهتهم : ليجاريهم فى زعمهم بأن هذه آلهة بقرينة إضافتها إلى ضميرهم ، أى إلى الآلهة المزعومة لهم .

فضلاً عن أن التعبير بقوله : آلهتهم : فيه تهكم وتوبيخ واستهزاء وسخرية بهم ، إن كانت هذه آلهة حقاً كما زعمتومها فهل تستطيع أن تدفع عنها ما يضرها ، أو مجرد أن تخبرتم بالذى حدث لها من تكسير وغير ذلك.

ومخاطبة سيدنا إبراهيم لتلك الأصنام بقوله : (فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون) وهو فى حال خلوة بها وعلى غير مسمع من عبدتها ، قصد به أن يثير فى نفسه غضباً عليها ، إذ زعموا لها الإلهية ليزداد قوة عزم على كسرها .

فليس خطاب سيدنا إبراهيم للأصنام مستعملاً فى حقيقته ، ولكنه مستعمل فى لازمه وهو تذكر كذب الذى ألهوها ، والذين سندوا لها وزعموا

أنها تأكل الطعام الذى يضعونه بين يديها ، ويزعمون أنها تكلمهم وتخبرهم، ولذلك عقب هذا الخطاب بقوله (فراغ عليهم ضربا باليمين) "[١١٠] .

أو أن خطاب سيدنا إبراهيم للأصنام بقوله (ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون) استهزاء بها وبانحطاطها على حال عبدتها[١١١] .

أو أن مخاطبته للأصنام وهى لا تعقل كان بقصد الاستهزاء بعابدها ؛ لأن عادة أولئك كانت إنهم يتركون فى بيوت الأصنام طعاماً يعتقدون أنها تصيب منه شميما ونحو هذا من المعتقدات الباطلة ، ثم كان خدم البيت يأكلونه ، فلما دخل سيدنا إبراهيم وقف على الأكل وخاطب الأصنام بقوله : (ألا تأكلون) استهزاء بعابدها وتفاهة عقولهم التى جعلتهم يضعون لها الطعام ويعتقدون أنها تصيب منه فهل هناك تفاهة وخفة أكثر من هذا .

فضلاً عن أنه خاطبها كما يخاطب من يعقل فقال : (ألا تأكلون) لأن قومه أنزلوها تلك المنزلة ، وقوله : (ما لكم لا تنطقون) زيادة فى السخرية بتلك الأصنام وفى إظهار الغيظ منها ، والضيق بها والغضب عليها .

فإن قيل : أى فائدة فى خطاب ما لا يعقل ؟ أجيب : بأنه لعل عنده من يسمع كلامه من خدمتها أو غيرهم[١١٢] .

والاستفهام فى قوله (ألا تأكلون) خرج من معناه الحقيقى إلى معنى النفى ، ولكنه نفى متولد عن تقريرهم بعدم القدرة على الأكل ، أو عدم الاشتهاء أصلاً ؛ لأنها جمادات لا روح فيها ولا حياة .

ومن الجدير بالذكر : أن هذا الاستفهام المراد به معنى النفى أبلغ من النفى الصريح ؛ لأن للاستفهام المراد به النفى مزية كان بها أبلغ أثراً ، وأوقع فى النفس من النفى الصريح ؛ لأنك إذا قلت : أأنت قلت هذا الشعر ؟ فإنك لم تفده غرضك وهو تكذيبه أو توبيخه ، بادئ ذى بدء بل أوقعت فى روعه أنك تطلب منه جواباً فيتنبه ويرجع إلى نفسه ليجيب فيعيا بالجواب ويخجل ويعلم أنك قصدت تكذيبه ؛ لأنه ادعى القدرة على شىء لا يقدر

---

١١٠ - التحرير والتنوير ٢٣ / ١٤٣ ، ١٤٤ .
١١١ - ينظر : الكشاف ٣ / ٣٤٥ .
١١٢ - ينظر : حاشية الصاوى ٣ / ٢٨٤ .

عليه، أو تخطئته وتوبيخه لأنه هم بأمر لا يستصوب فعله ، وقد تتمادى به الغفلة ويظن أنك مستفهم حقاً فيقول نعم أنا قلت هذا الشعر ، فتقول حينئذ: فانظم على غراره ، فيظهر عجزه ويفتضح أمره ويصبح موضعاً للسخرية والاستهزاء ، ومزية أخرى للاستفهام المراد به النفى ، وهى : أن أسلوبه يشعر بثقة المتكلم واطمئنانه وأنه لا يخشى تكذيباً ولا مخالفة لإيهامه أن السامع أعلم منه بحقيقة الأمر ، ولذلك يطلب منه الجواب بحسب الظاهر ، أما إذا أتيت بالنفى الصريح فقلت : أنت لم تقل هذا الشعر لمن ينتحل شعراً فقد أفدت غرضك من أول وهلة ، ولم توح للمخاطب أن يراجع نفسه ليخجل ويرتدع ويعلم أنك مخطئ ولم يشعر الأسلوب بثقتك واطمئنانك إلى عدم التكذيب .

كذلك ذكر الإمام عبد القاهر أن مما يؤيد الفرق بين الأسلوبين أن النفى الصريح لا يخالف المستحيل وفيما لا يقول به عاقل فلا تقول مثلاً لمن يحاول أمراً بعيداً : أنت لا تصعد إلى السماء ، أنت لا تنقل الجبال ، ولكنك تقول : أتصعد إلى السماء ؟ أتنقل الجبال ؟ فلو كان معنى الأسلوبين واحداً من كل وجه لامتنع الإنكار بالاستفهام كما امتنع بالنفى [113] .

ويحتمل أن يكون قوله (ألا تأكلون) للعرض بقصد التهكم ، وكان عابدوها يضعون أمامها طعاماً للتبرك فسخر منهم إبراهيم – عليه السلام – بحثهم على الأكل وهو يعلم أنها لا تشتهى ، فعبر بالمسبب وهو عدم الأكل عن نفى السبب وهو الاشتهاء [114] .

والاستفهام الثانى فى قوله : (ما لكم لا تنطقون) خرج من معناه الحقيقى إلى معنى بلاغى هو النفى والتهكم ، نفى وقوع أن تكون لهم قدرة على النطق ، ثم السخرية منهم ومن عابديهم .

---

١١٣ - ينظر : دلائل الإعجاز ص ١١٩ – ١٢٠ ، ودراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر فى التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير - لعبد الهادى العبد ص ٢٦٠ – الطبعة الثانية – المطبعة المنيرية ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥م .

١١٤ - ينظر : التفسير البلاغى ٣ / ٣٧٨ .

وقد تُوصلَ لهذا النفى عن طريق الكناية ؛ لأن (ما لكم) سؤال عن السبب ، والسؤال عنه يقتضى عدم وجوده ، وعدم وجود السبب يستلزم عدم وجود المسبب ، وهو الامتناع عن النطــق – لمانع طارئ – مع القدرة عليه .

والأصنام لا تنطق أصلاً ، وليس عدم نطقها ناشئاً عن سبب طارئ ، ونفى هذا السبب كناية عن عجزها أصالة عن النطق .

والمراد تقرير جماديتها ، توصلاً لنفى صفة الألوهية عنها ، والتعبير بالفعل المضارع (لا تنطقون) أفاد شيئين :

الشيء الأول : شمول العجز عن النطق فى جميع الأوقات .

الشيء الثانى : تحقيق التوازن الإيقاعى الصوتى بين فواصل الآيات [١١٥] .

وفى قوله : (ما لكم لا تنطقون) إيجاز بالحذف ؛ لأن (ما) اسم استفهام مبتدأ ، و(لكم) خبر ، وجملة (لا تنطقون) فى محل نصب على الحال ، وجملة ما لكم مقول قول محذوف والتقدير : فلم ينطقوا فقال : ما لكم لا تنطقون [١١٦] .

وقد فصلت جملة (ما لكم لا تنطقون) عن الجملة التى قبلها (فقال ألا تأكلون) لأن الجملة الأولى فيها شيء من الغموض والخفاء ، يا ترى هل أكلوا أم لا ؟ يا ترى هل ردوا على سيدنا إبراهيم أم لا ؟ فجاءت الجملة الثانية تزيل هذا الإبهام (ما لكم لا تنطقون) فعلم السامع بأنهم لا يأكلون ، ولا ينطقون ، وما هى إلا أحجار لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ، وبذلك يكون قد تحقق موطن من مواطن الفصل وهو كمال الاتصال .

وقوله : (فراغ عليهم ضربا باليمين) ، أى : فأقبل عليهم مستخفياً ، كأنه قال : فضربهم ضرباً ؛ لأن : راغ عليهم بمعنى ضربهم أو فراغ عليهم يضربهم ضرباً ، أو فراغ عليه ضرباً بمعنى ضارباً [١١٧] .

---

١١٥ - ينظر : التفسير البلاغى ٣ / ٣٧٨ .
١١٦ - ينظر : إعراب القرآن وبيانه ٨ / ٢٩٢ .
١١٧ - ينظر : الكشاف ٣ / ٣٤٥ .

وجملة : (فراغ عليهم ضربا ...) لا محل لها معطوفة على جملة (قال) ، وقيل : إن الفاء عاطفة على محذوف وبذلك يكون فى التعبير إيجاز بالحذف والتقدير : فلم يجيبوا فراغ [١١٨] .

والتعدية بـ (على) فى قوله (فراغ عليهم) للاستعلاء وأن الميل لمكروه ، وذهابه إليهم كان للمضرة ، ولذلك نجد الشهاب يقول : " وعلى للمضرة كما فى دعا عليه " [١١٩] .

وتأمل تقييد الضرب باليمين (فراغ عليهم ضرباً باليمين) ؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما ، كما أن تقييده باليمين للدلالة على قوته ، فإن قوة الآلة تستدعى قوة الفعل ، وقيل باليمين بسبب الحلف وهو قوله : (تا الله لأكيدن أصنامكم) " [١٢٠] .

فضلاً عن أن التعبير بالمصدر (ضرباً) يشير إلى قوة الهمة ، بحيث صار كله ضرباً .

كما أن لفظ (عليهم) يوحى بأنه ذهب إليهم وهو فى غاية النشاط والخفة والرشاقة يضربهم ضرب اليمين أى بغاية القوة .

والباء فى قوله (ضرباً باليمين) للاستعانة ، ويجوز كونها للملابسة [١٢١] .

وإذا كانت اليمين بمعنى القوة ، يكون التعبير من قبيل المجاز ، حيث استعار اليمين للقوة على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، ولذلك نجد الشهاب يقول : " واليمين بمعنى القوة مجازاً " [١٢٢] .

وانتهى سيدنا إبراهيم من تحطيم الأصنام ، وارتاحت نفسه لما فعله بها، وشفى قلبه من الهم والضيق الذى كان يجده حين رؤيتها .

---

١١٨ - ينظر : إعراب القرآن وبيانه ٨ / ٢٩٢ .
١١٩ - حاشية الشهاب ٧ / ٢٧٧ .
١٢٠ - ينظر : البيضاوى ضمن حاشية الشهاب ٧ / ٢٧٧ .
١٢١ - ينظر : حاشية الشهاب ٧ / ٢٧٧ .
١٢٢ - ينظر : حاشية الشهاب ٧ / ٢٧٧ .

الخاتمة

الحمد لله وكفي ، وصلاة وسلاماً علي عباده الذين اصطفي .

وبعـــد ،،

فهذه هى الفكرة الثانية في خطاب ما لا يعقل في القرآن الكريم ، قد أسفرت عن نتائج كان أهمها :

أن هناك فرقاً بين خطاب الله لغير العاقل وخطاب الأنبياء لغير العاقل فكما سبق أن بينا في الفكرة الأولى [١٢٣] أن خطاب الله لغير العاقل كان حقيقة بغض النظر عن كيفية هذه الحقيقة فالله أعلم بها ولا سبيل لأحد إلى الوقوف عليها .

أما خطاب الأنبياء لغير العاقل فقد يكون حقيقة في مواضع ، وقد يقصد به أسرارٌ بلاغية في مواضع أخرى .

فعلي سبيل المثال خطاب سيدنا إبراهيم للطير في قوله (ثم ادعهن يأتينك سعيا) ففعل الأمر (ادعهن) مستعمل في حقيقته ، ويلتزم سيدنا إبراهيم ليصل إلى جواب سؤاله من خلال التجربة العملية التي يقوم بها ، وبذلك تكون النتيجة أوضح لديه من أن يقوم به أحد غيره .

كذلك خطاب سيدنا سليمان للهدهد في قوله تعالي (اذهب بكتابي هذا فالقه إليهم) فالأمر في قوله " اذهب " علي حقيقته ؛ لأنه طلب الفعل علي وجه الاستعلاء والإلزام وهذا الخطاب الحقيقي يفسره قول الله تعالي (يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ)[١٢٤]

أما خطاب سيدنا إبراهيم للأصنام (فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون مالكم لا تنطقون) فالخطاب هنا ليس خطابا حقيقيا وإنما كان وراؤه أسراراً بلاغية كثيرة منها :

---

١٢٣ - وهـو الـبحث الـسابق الذي بعنوان .. خطاب الله – سبحانه وتعالي لغير العاقل في القرآن الكريم دراسة بلاغية

١٢٤ - الآية ١٦ من سورة النمل .

أنه خاطبها وهو في حال خلوةٍ بها وعلي غير مسمع من عبدتها وهو يعلم تمام العلم أنها لا تسمع ولا تبصر ولكنه أراد أن يثير في نفسه غضباً عليها إذ زعموا لها الألوهية ليزداد قوة عزم علي كسرها .

فخطابه إذن ليس مستعملاً في حقيقته ولكنه مستعمل في لازمه وهو تذكر كذب الذي ألهوها والذين سندوا لها وزعموا أنها تأكل الطعام الذي يضعونه بين يديها ويزعمون أنها تكلمهم وتخبرهم .

فضلاً عن أن خطاب سيدنا إبراهيم للأصنام بقوله " ألا تأكلون مالكم لا تنطقون " استهزاءا بها وبانحطاطها عن حال عبدتها وكان سخرية بعابدها لأن عادة أولئك كانوا يضعون الطعام عندها ويعتقدون أنها تصيب منه شميماً ونحو هذا من المعتقدات الباطلة ثم كان خدم البيت يأكلونه فلما دخل سيدنا إبراهيم وقف علي الأكل وخاطبهم بقوله " ألا تأكلون " استهزاء بعابدها وتفاهة عقولهم التي جعلتهم يضعون لها الطعام ويعتقدون أنها تصيب منه فهل هناك تفاهة وخفة أكثر من هذا .

أو أن خطابه لها خطاب من يعقل كان مجاراة لاعتقاد قومه لأنهم أنزلوها تلك المنزلة فأراد أن يزداد في السخرية بتلك الأصنام وفي إظهار الغيظ منها والضيق بها والغضب عليها .

كذلك من الفروق بين الخطابين أن خطاب الله سبحانه وتعالي لغير العاقل كان دليلاً علي أن أمر الله وتكليفه نافذ في الجمادات فعند هذا يحكم الوهم بأنه لما كان الأمر كذلك فلأن يكون أمره نافذا علي العقلاء من باب أولى .

أما خطاب الأنبياء لغير الله العاقل فكان معجزة لهم وتصديق لهم بأنهم أنبياء حق من عند الله تبارك وتعالى .

كذلك من الفروق بين الخطابين أن الله - تبارك وتعالي - عندما خاطب غير العاقل خاطب من ؟ خاطب السماء التي رفعت بدون عمد ، وخاطب الأرض التي بسطت علي ماء جمد تأمل قوله (وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا

لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [١٢٥] كذلك قوله (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) [١٢٦]

أو خاطب الجبال التي هي أغلظ الأرض وأثقلها فبادرت بالإجابة وامتثلت لأوامره فانظر إلى عظمة القدرة الإلهية إذ من طبع الصخور الجمود ومن طبع الطيور النفور ومع هذا فقد وافقت سيدنا داود عليه السلام في التسبيح "في قوله (يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ). [١٢٧]

أو خاطب النار التي لها سبعون ألف زمام في كل زمام سبعون ألف ملك بيد كل ملك حلقة من حديد لو وزن حديد الدنيا كله ما كان يساوي حلقة واحدة في قوله " يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ". [١٢٨]

أما المخاطب في جانب الأنبياء الطير واستجابته للخطاب بأمر الله وأرادته ، أو المخاطب الهدهد وهو طائر ضعيف أو المخاطب الأصنام وهي عبارة عن أحجار لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ، ومن خلال ذلك نعلم بأن المخاطب في جانب الأنبياء كان دليلاً على بشريتهم بخلاف المخاطب في جانب الله سبحانه وتعالى .

كذلك من الفروق بين الخطابين أن الآيات التي خاطب الله فيها غير العاقل غالباً ما كان يحذف المخاطب وهو الله سبحانه وتعالى اعتماداً على أن هذه الأفعال لا تصدر إلا من الله سبحانه وتعالى وأن هذا الخبر لا يكون إلا له حقيقة .

بينما نجد خطاب الأنبياء لغير العاقل يصرح فيه بالمخاطب فمثلاً خطاب سيدنا إبراهيم المقدر لطير صرح فيه باسم سيدنا إبراهيم في قوله (وإذ قال إبراهيم .....) كذلك خطاب سيدنا إبراهيم للأصنام صرح باسمه في قوله تعالى (وإن من شيعته لإبراهيم...)

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

١٢٥ - الآية ٤٤ من سورة هود .

١٢٦ - الآية ١١ من سورة فصلت .

١٢٧ - الآية ١٠ من سورة سبأ .

١٢٨ - الآية ٣٠ من سورة ق .

فهرس المصادر والمراجع

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود - دار الفكر - من دون.

٢- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى – دار المعرفة – بيروت

٣- الأشباه والنظائر فى النحو للسيوطى –الطبعة الثامنة – دائرة المعارف العثمانية سنة ١٣٦٠ هـ

٤- إعراب القرآن الكريم وبيانه تأليف أ/ محيى الدين الدرويش –الطبعة الرابعة –دار اليمامة ودار ابن كثير-١٤١٥هـ/ ١٩٩٤ م .

٥- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك – لابن هشام الأنصارى – تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦م .

٦- الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى – ت محمد عبد المنعم خفاجى- الطبعة الثالثة –المكتبة الأزهرية للتراث- ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣ م .

٧- البحر المحيط لأبى حيان- دار الفكر – ١٤١٢هـ- ١٩٩٢ م.

٨- بديع القرآن – لابن أبى الإصبع المصرى – تحقيق / حفنى محمد شرف – نهضة مصر للطباعة والنشر .

٩- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن- تالف كمال الدين بن عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكانى ٦٥١ م- ت د/ خديجة الحديثى- د/ احمد مطلوب مطبعة العانى بغداد- الطبعة الأولى –١٣٩٤ هـ- ١٩٧٤م.

١٠- البيضاوى ضمن حاشية الشهاب- دار إحياء التراث العربى – مؤسسة التاريخ العربى – بيروت –لبنان- من دون.

١١- تحرير التحبير – لابن أبى الإصبع المصرى – تحقيق / حفنى محمد شرف ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥م .

١٢- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور- الدار التونسية للنشر.

١٣- التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الكريم د/ عبد العظيم المطعنى- مكتبة وهبة- الطبعة الأولى –١٤٢٠ ه ١٩٩٩ م .

١٤- التفسير الكبير للرازى- الطبعة الأولى – دار الكتب العلمية بيروت- ١٤١١ هـ- ١٩٩٠ م .

١٥- التفسير الوسيط للقران الكريم د/ محمد سيد طنطاوى- دار المعارف ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢ م.

١٦- الجامع لأحكام القرآن للقرطبى – الهيئة المصرية العامة للكتاب.
١٧- الجدول فى إعراب القرآن الكريم وصرفة وبيانه – تصنيف محمود صافى – الطبعة الأولى – دار الرشيد- ١٤١١ ه- ١٩٩١ م .
١٨- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى- دار إحياء التراث العربى- مؤسسة التاريخ العربى – بيروت – لبنان- من دون.
١٩- حاشية الصاوى عن تسير الجلالين- طبعة دار إحياء الكتب العربية .
٢٠- حاشية محيي الدين الشيخ زاده علي تفسير البيضاوي – دار صادر بيروت - المكتبة الإسلامية .
٢١- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر – تحقيق / محمود محمد شاكر – الطبعة الثالثة – مطبعة المدنى ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م .
٢٢- روح المعاني للآلوسي – الطبعة الرابعة – دار إحياء التراث العربي بيروت – ١٤٠٥هـ ١٩٨٥ م
٢٣- سنن الترمذى – تحقيق الشيخ / إبراهيم عطوة عوض – دار الحديث .
٢٤- شروح التلخيص -دار الكتب العلمية – بيروت .
٢٥- فتح البيان في مقاصد القرآن لآبي الطيب القنوجي البخاري ت ١٣٠٧هـ – المكتبة العصرية – بيروت -١٤١٢هـ ١٩٩٢م
٢٦- في ظلال القرآن للسيد قطب – دار الشروق .
٢٧- الكشاف للزمخشرى – دار الفكر – من دون .
٢٨- المحرر الوجيز لابن عطية – تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد – الطبعة الأولى – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٣هـ ١٩٩٢م
٢٩- المطول لسعد الدين التفتازاني المكتبة الأزهرية للتراث – من دون
٣٠- مفتاح العلوم للسكاكى – الطبعة الثانية – مطبعة الحلبى ١٤١١ هـ / ١٩٩٠م
٣١- من بلاغة القرآن الدكتور / أحمد أحمد بدوي – دار نهضة مصر – من دون .
٣٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي- الطبعة الأولى – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .